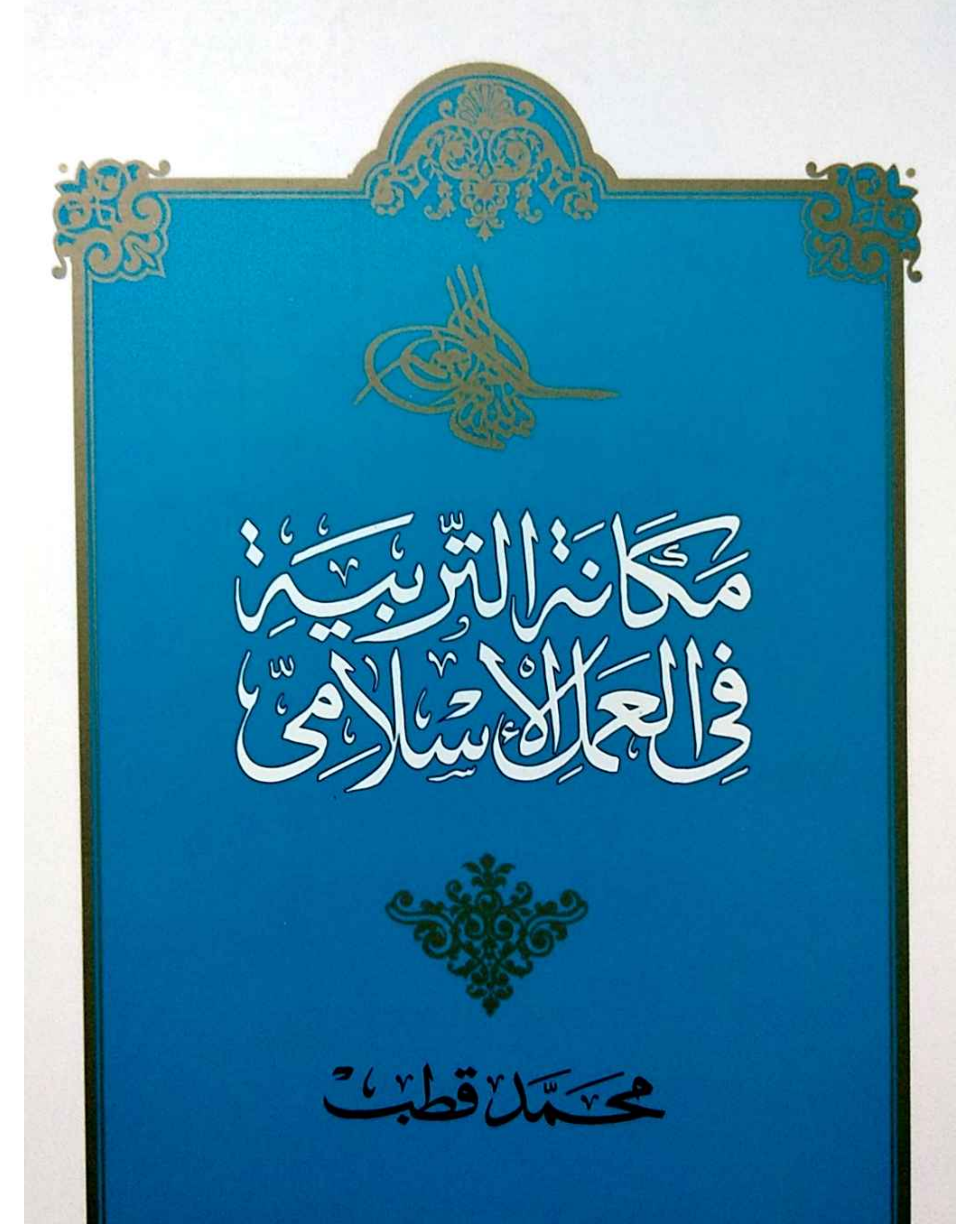
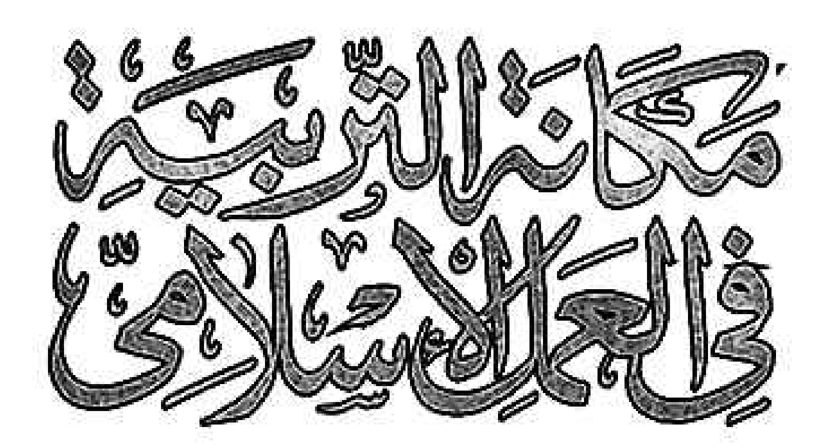

مكانة التربية
في العمل الإسلامي
محمد قطب
دار الشروق


مكانة التربية
في العمل الإسلامي

طبعة دار الشروق الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

محمد قطب



دار الشروق

المحتويات

مقدمة ٩
تساؤلات ١٢
مجالات تحتاج إلى تركيز ٣٧
١ ـ التجرد لله ٣٧
٢ ـ الشورى ٤٤
٣ ـ أخلاقيات ٥١
(أ) التعامل المالى ٥٣
(ب) تعاملات أخرى ٥٥
مجالات تحتاج إلى الالتفات إليها ٦٠
١ ـ الوعى السياسى والوعى الحركى ٦٠
٢ ـ الثلاثى المعوق عن النهوض ٧٥
الإسلام قادم ٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾.

(سورة النساء: ١٣٦)

مقـــدمـة

حين ننادى بضرورة الاهتمام بالتربية فى العمل الإسلامى تثور عند بعض الناس تساؤلات: ما المقصود بالتربية؟ إلى متى نربى دون أن نعمل أو قبل أن نعمل؟ وفريق من الناس يقول: ربينا بما فيه الكفاية، فلنبحث فيما يجب عمله بعد ذلك.. بل قال بعض الناس: ما جدوى العمل فى مجال التربية إذا كان الأعداء يأخذون الذين ربيناهم فيسجنونهم أو يقتلونهم أو يحاصرونهم، فيضيع الجهد الذى بذلناه فى تربيتهم؟!

وقد كتبت هذه الصفحات للرد على مثل هذه التساؤلات، ولأبين أهمية التربية فى العمل الإسلامى، وأهمية الاستمرار فيها، وأنها عمل دائب لا يتوقف عند حد معين فى زمان ولا مكان.

كذلك أردت فى هذه الصفحات أن أشير إلى بعض المجالات التربوية التى أرى أنها لم تستوف حظها من الاهتمام، أو لم تكن موضع الاهتمام أصلا، لكى نوجه عنايتنا إليها.

ويجب أن أذكر أن حديثى فى هذه الصفحات لم يكن للبحث فى المناهج التطبيقية فى مجال التربية، إنما كان فقط للرد على التساؤلات السالفة الذكر، أما البحث فى الوسائل التطبيقية فهذا مبحث مستقل، وميدان مفتوح للاجتهاد، يجتهد فيه كل من يأنس فى نفسه القدرة والموهبة. ولكن ينبغى أولا أن نعرف ما المطلوب، لنبحث فى الوسائل التى تحقق المطلوب.

كما ينبغى أن أذكر أننى فى الحديث عن مكانة التربية فى العمل الإسلامى، أو

عن الجوانب التى أرى أنها لم تستوف حظها من الاهتمام، كان مرجعى كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ ، والجهد الذى قام به رسول اللّه ﷺ فى تربية أصحابه رضوان اللّه عليهم، سواء فى مكة أو فى المدينة خلال ثلاثة وعشرين عاما.

وحين ندعو إلى اتباع ذلك المنهج فلا يحسبن أحد أننا نتوقع الخروج بذات الحصيلة التى خرج بها المربى الأعظم ﷺ ، فذلك الجيل الفريد لم يتكرر فى التاريخ، وإن لم يخل جيل من أجيال المسلمين من أفراد يرتفعون إلى المستوى السامق. ولكن المنهج مع ذلك هو المنهج، يحصّل منه كل إنسان ما تؤهله له قدراته، وما تؤهله له ظروفه، وما يؤهله له الجهد الذى يبذله فى التحصيل.

ونضرب مثالا من مجال التعليم ربما يقرب القضية إلى الأذهان.

إن وزارات التربية والتعليم فى العالم كله تضع منهجا محددا لكل فرقة من فرق الدراسة، ولكل نوع من أنواع التعليم. فالطالب المتفوق يستوعب المنهج كله على درجة عالية من التمكن، والطالب العادى يأخذ منه بنصيب معقول، أما الطالب الضعيف فيرسب. بينما المنهج واحد للجميع[(١)].

ومجال التربية كذلك. هو للجميع. فقد أنزل اللّه كتابه للبشرية كافة، وأرسل رسول اللّه ﷺ للبشرية كافة: ﴿ **قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ (الأعراف: ١٥٨). ولكن تختلف أحوال الناس ودرجاتهم، فمنهم - ابتداءً - مهتد ومعرض عن الهدى. ثم إن المهتدين أنفسهم درجات كما بيّن رب العالمين: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** ﴾ (فاطر: ٣٢). كما قال تعالى: ﴿ **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا** ﴾ (الأنعام: ١٣٢).

ويجب أن أذكر أخيرًا أننى حين أشير إلى بعض الجوانب التى لم تستوف حظها من الاهتمام أو لم يوجه إليها الاهتمام أصلا، لا أقصد جماعة معينة، أو شخصا بعينه. إنما أتحدث عن العمل الإسلامى عامة، وعن الصورة التى ينبغى أن يكون عليها، وهو أمر يشارك فيه الجميع، وتقع مسئوليته على الجميع. كما أننى حين

---

(١) لا يمنع هذا من تخصيص برامج إضافية للمتفوقين، ومن إعانة الضعاف حتى يتحسن تحصيلهم.

أشير إلى هذه الجوانب لا أقصد إغفال الجوانب التى قام العاملون بجهد مميز فيها ، ووصلوا فيها إلى نتائج محسوسة ملموسة ، ولكنى أدعو فقط إلى إتمام الجهد لكى يؤتى ثماره المرجوة بإذن الله .

اللهم ألهمنا أن نسلك طريق الصواب ، وأن نكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود : ٨٨) .

محمد قطب

تســـــاؤلات

١

ما الهدف من التربية؟

الهدف من التربية الإسلامية فى كلمات قليلة هو تنشئة «الإنسان الصالح» أيا كان هذا الإنسان: ذكرًا أم أنثى، وأيا كانت وظيفته التى يقوم بها فى المجتمع: حاكمًا أو محكومًا، طبيبًا أو مهندسا أو تاجرا أو صانعا أو زارعا.

وتنشئة الإنسان الصالح - كما قلنا فى غير هذا المكان[١] - شىء يختلف عما درجت عليه مناهج التربية عند كثير من الأمم، التى تجعل هدفها تربية «المواطن الصالح». فالمواطن الصالح فى نظر قومه قد يكون إنسانا صالحا وقد لا يكون، لأن المعايير التى يتربى عليها مستمدة من أهداف المجتمع الذى يعيش فيه، والدولة التى تشرف عليه، وهذه قد تكون أهدافا خيرة وقد تكون أهدافا شريرة، وفى كلتا الحالتين ينطبع «المواطن» بطابعها، فيكون خيِّرًا أو شريرا، ولكنه يظل - دائمًا - مواطنا صالحا فى نظر قومه إذا حقق أهدافهم و«مصالحهم»!

وفى عالمنا المعاصر دول تسمى نفسها «الدول العظمى» تسعى إلى الهيمنة والسيطرة وإذلال الآخرين، وتَعُدّ أبناءها مواطنين صالحين بقدر ما يحققون لها من شهوة السيطرة، ولو مارسوا فى سبيل ذلك القتل والتعذيب والتشريد والاضطهاد لمن يقف فى طريق مطامعها! ولا تتحرج تلك الدول أن تضع المثاليات فى دساتيرها المكتوبة، وفى مناهج التربية التى تدرَّس فى المدارس والجامعات، ثم تخالفها فى

---

(١) انظر إن شئت كتاب «منهج التربية الإسلامية».

سلوكها الواقعى، ولا تجد فى ذلك عيبا ولا نقيصة، فالذى فى الورق «كلام» والذى يمارس فى الواقع «مصالح»!

أيا كان الأمر فالإسلام ليس كذلك!

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ (النساء: ٦٤).

لا يرسل اللّه الرسل ولا ينزل الكتب لتحوى كلاما جميلا ومثلا لا تطبق فى عالم الواقع.

الإسلام هو دين اللّه المنزل، ومهمة الرسل - صلوات اللّه وسلامه عليهم - أن يترجموا الوحى المنزل إلى واقع معيش، لا أن يجعلوه شعارات براقة لا رصيد لها فى واقع الأرض.

والرسالة الخاتمة هى التى اكتمل بها الدين: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ (المائدة: ٣).

والرسول الأعظم ﷺ قام فى واقع الأرض بترجمة الوحى المنزل فى هذه الرسالة إلى واقع معيش بلغ الذروة فى روعة الأداء، واستحق وصف اللّه له: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وكان عليه الصلاة والسلام هو المثل الأعلى فى التطبيق. سئلت عائشة رضى اللّه عنها عن خلقه ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. وهى عبارة غنية عن التعليق، فكل ما جاء فى القرآن من توجيه كان خلقا لرسول اللّه ﷺ، يمارسه فى عالم الواقع، ويمارسه على الصورة المثلى، قبل أن يدعو إليه الناس، وقبل أن يربى عليه أصحابه الكرام.

وللرسالة الخاتمة صفات وسمات. وللرسول الخاتم الذى ترجمها إلى واقع حى - ﷺ - صفات وسمات.

من سمات هذه الرسالة أن تكاليفها منظور فيها إلى طاقة البشر: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ**

نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦). فهى من هذا الجانب «واقعية» تماما، تأمر بما فى طوق البشر أن يقوموا به، والذى أنزلها هو اللطيف الخبير، الذى يعلم طبيعة من خلق ومدى طاقاتهم: ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤).

ولكنها من جانب آخر تسعى إلى رفع الإنسان إلى أعلى ما يستطيع أن يصل إليه ليكون ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين: ٤) فهى فى هذا الجانب «مثالية» لا بمعنى أنها تطلب من الإنسان مثاليات لا يطيقها كيانه البشرى، ولكن بمعنى العمل على رفع البشر إلى عالم القيم العليا الجديرة «بالإنسان» الذى كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء: ٧٠).

إنها تفرض الحد الأدنى الذى لا تستقيم الحياة بدونه، وتشدد فى ضرورة تطبيقه، وتضع عقوبات على الإخلال به، ولكنها فى الوقت ذاته تدعو إلى قمم أعلى من الحد الأدنى المفروض، وتحث الناس على محاولة الوصول إليها تحبيبا وترغيبا دون فرض، فيقومون بها تطوعا وتقربا إلى الله، ويجدون سعادة فى القيام بها تعوضهم عن الجهد الذى يبذلونه فى تحصيلها، وتحببهم فى الاستمرار عليها، والحرص على أدائها ابتغاء مرضاة الله. وذلك من أروع ما يشتمل عليه المنهج الربانى، ومن أفعل الوسائل فى تربية «الإنسان الصالح».

أما الرسول ﷺ فهو القدوة والأسوة فى كل ما يدعو الناس إليه، بل هو المثل الأعلى فى كل أمر. فيسمع الناس منه البلاغ، ثم يرون فى شخصه الكريم الطريقة المثلى لتحقيق ما يبلغهم به، فيكون الدرس مصحوبا دائما بوسائل الإيضاح، فيتجسم فى حسهم واقعا ملموسًا لا مجرد شعارات ولا لافتات، فيتعمق أثره فى النفس ولا يزول. وذلك فضلا عما منّ الله به على رسوله الكريم ﷺ من الشمائل، وما وهبه من المواهب التى جعلته أعظم مربٍّ فى التاريخ، من حب خالص لمن يدعوهم، وملاحظة دقيقة لكل فرد، تستخلص إيجابياته لتزيدها رسوخا، وسلبياته لتعالجها وتقومها، ومتابعة لا تمل، ورحمة وعطف، ونفاذ إلى أعماق المشاعر لتحركها من جذورها.

ومن هذا التضافر الوثيق بين الرسالة والرسول خرجت تلك النماذج الفذة التى

يزخر بها تاريخ هذه الفترة التى أخرجت ﴿ **خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ (آل عمران: ١١٠) والتى قال عنها رسول الله ﷺ: «خير القرون قرنى..» (أخرجه الشيخان).

فأما الرسالة فقد تكفل الله بحفظها فلم يتغير منها حرف: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (الحجر: ٩). فهى باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وأما الرسول ﷺ فإن كان شخصه الكريم قد غاب عن هذه الحياة الدنيا، فقد قيض الله من يحفظ سيرته، ويحفظ أقواله وأفعاله بصورة لم تتوافر لشخصية أخرى فى التاريخ، فهى ماثلة لكل من أراد أن ينهل منها ويقتبس من نورها إلى يوم القيامة.

وخلاصة القول أن المنهج موجود بتمامه، يسعى إلى تطبيقه من شرح الله صدره له، والتوفيق من عند الله.

وثمة قضية قد ترد على الذهن فى هذا الشأن: كيف يتأتى أن يكون المنهج ثابتا بينما الحياة فى تغير دائم، وما من جيل هو صورة طبق الأصل من جيل آخر، ولكل جيل أحواله وظروفه ومتطلبات حياته، فضلا عما يكون متاحا له من أدوات دائمة التطور، وعلوم دائمة الاتساع.

ولا مشكل فى الحقيقة فى هذه القضية. فالله الذى أنزل هذا المنهج وألزم به المؤمنين يعلم علم اليقين أن هناك فى حياة البشر ما يتغير على الدوام، نتيجة احتكاك العقل البشرى بالكون المادى، وما يستخلص من محتوياته، وما يسخّر من طاقاته؛ ولا يطلب الله سبحانه وتعالى من الإنسان أن يكف عن استخلاص الطاقات واستحداث الأدوات، ولكنه يعلم - سبحانه - أن هذا كله لا يغير الجوهر البشرى الذى أودعه الله فى كيان الإنسان، وإن غيّر صورة حياته. ومن أجل ذلك يخاطب الله فى منهجه المنزل ذلك الجوهر الثابت، ويدعوه فى الوقت ذاته إلى أن يبذل جهده فى التعرف على الكون واستخلاص طاقاته لعمارة الأرض: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ** ﴾ (الجاثية: ١٣) بشرط واحد هو أن يلتزم فى عمارة الأرض بالثوابت التى أنزلها الله.

أما مواصفات «الإنسان الصالح» الذى يسعى الإسلام إلى تنشئته فيجملها قوله

تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. وتفصلها مئات من آيات الكتاب المبين، ومئات - بل ألوف - من أحاديث الرسول ﷺ. وليس هنا مجال التفصيل فى الحديث عنها[1]. وإنما نشير هنا فقط إلى خاصية الشمول فيها، فهى تشمل كيان الإنسان كله، لا تدع جانبا من جوانب نفسه ولا جانبا من جوانب حياته إلا أرشدت إلى الصورة الصحيحة التى تكون عليها فى «الإنسان الصالح» سواء كان الإرشاد فرضا يفرض أو ترغيبا وتحبيبا فى الأمور التى لم يفرضها المنهج الربانى، ولكنه حبب فى إتيانها تطوعا ابتغاء مرضاة الله. فهى تشمل من الإنسان جسده وعقله وروحه، وأخلاقه وسلوكياته، ومشاعره الباطنة وأعماله الظاهرة. كما تشمل من الحياة كل جوانبها: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية والفكرية والفنية، وتشمل العلاقات كلها: علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأهل بيته: زوجه وأولاده، وعلاقته بالوالدين والأقربين، وعلاقته بالناس كلهم أصدقاء وأعداءً، فى حالة الأمن والخوف، والسلم والحرب، وكل ما يرد فى الحياة من أحوال.

ثم إنها إلى جانب الشمول متوازنة ومتكاملة. فهى فى توازنها لا تضخم جانبا على حساب جانب، ولا تهمل جانبا لحساب جانب. وهى فى تكاملها تتعامل مع الإنسان على أنه وحدة متكاملة مترابطة، لا على أنه أجزاء وتفاريق، بل يربطها كيان مشترك هو «الشخصية» الإنسانية.

ولا يغيب عن الذهن بطبيعة الحال أن هناك فروقا فردية فى التربية وإن اتفقت الأهداف العامة. فروق تحكمها مؤهلات كل شخص من ناحية، والوظيفة التى يقوم بها فى المجتمع من ناحية أخرى. فتربية الشخص الذى يعد ليكون قائدا تختلف عن الشخص الذى يعد ليكون جنديا، وتربية الذى يعد ليكون عالما غير تربية الذى يعد ليتلقى العلم فحسب. وهذا أمر بدهى فى أمور التربية لا يحتاج إلى بيان، ولكن الأهداف العامة شاملة للناس كلهم يلخصها فى كتاب الله - كما أشرنا من قبل - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كما يلخصها النداء الربانى للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..﴾.

---

(١) انظر إن شئت على سبيل المثال كتاب «منهج التربية الإسلامية» بجزأيه الأول والثانى.

ومن نافلة القول أن الذى نتحدث عنه فى هذه الصفحات هو تربية الأفراد الذين تعدهم الجماعات الإسلامية ليكونوا دعاة، والذين هم عماد الحركات الإسلامية وعنوانها، والذين يحتاجون إلى عناية خاصة فى إعدادهم، لأن المهمة التى يقومون بها ليست مهمة هينة، والهدف الذى يسعون إليه ليس من الأهداف التى يستطيع كل إنسان أن يصل إليها ولو اشتمل على صفات تدخله فى عداد المؤمنين الصادقين.

إن المهمة المطلوبة هى إيقاظ أمة غافية، وإعادة أهلها إلى حقيقة الإسلام فى صورته الفاعلة فى واقع الأرض لا فى مجرد ألفاظ يتلفظ بها اللسان، أو مشاعر مستكنة فى الجنان، بل فى صورة عمل ملموس وواقع معيش. ويزيد هذه المهمة صعوبة - إلى جانب تفلت الأمة وتقاعسها، الذى جعلها غثاء كغثاء السيل كما وصفها الرسول ﷺ قبل أربعة عشر قرنا - كيد أعدائها لها، وتكالبهم عليها، وسعيهم الحثيث إلى قتل مقومات حياتها. ولذلك فهى مهمة هائلة، تحتاج إلى إعداد يكافئ ما تشتمل عليه من صعوبات، ولا يكفيها الإعداد العادى الذى لا يتعمق إلى الجذور.

ولنضع فى حسابنا أنه حين تستيقظ الأمة على حُداء دعاتها، وتعود إلى حقيقة الإسلام، فتمارسه على حقيقته فى واقع حياتها، فلن يعود الخير على الأمة وحدها، بل يستفيد من الخير آخرون.

إن هذه الأمة لم تُخْرَج لذات نفسها فحسب، بل أخرجها اللّه لخير البشرية جمعاء: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ (آل عمران: ١١٠). وحين كانت هذه الأمة ذات يوم محققة لرسالتها قامت بتأثيرها نهضة شاملة فى أوربا، على الرغم من أن أوربا لم تدخل فى الإسلام، بل حاربته أشد الحرب، ولكنها استفادت فى كل مجالات نهضتها بما قدمته هذه الأمة من الخير.

والبشرية التى تشقى اليوم - على الرغم من كل التقدم العلمى والمادى الذى أحرزته - بسبب الفراغ من القيم، يقفز منها ألوف كل عام فوق حاجز الكره وحاجز العصبية الصليبية فيدخلون فى الإسلام، على الرغم من كل السوء الذى تعانيه الأمة الإسلامية وتمثله أمام الناس، فكيف لو وجد النموذج الصحيح للإسلام مطبقا فى

عالم الواقع؟ إن هذه الألوف حرية أن تصبح مئات الألوف إن لم تصبح ملايين، يدخلون فى دين اللّه أفواجا كما دخل الناس فى دين اللّه أفواجا أول مرة.

ولن يدخل الناس فى دين اللّه بمجرد أن نرفع أمامهم شعارات الإسلام أو نحدثهم عنها! إنما هم أحرى أن يدخلوا فيه حين يرونه واقعا مطبقا فى الأرض.

إن اللّه لم ينزل كتابا ثم قال للناس اقرءوه ثم ادخلوا فى الإسلام. إنما بعث رسولا وأنزل عليه الكتاب، فكان الرسول ﷺ هو الترجمان الحى للكتاب، فأحب الناس النموذج فدخلوا فى دين اللّه وأحبوه. والطريق هو الطريق، من أول التاريخ إلى آخر التاريخ: دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة يحملها بشر تتمثل فيهم أخلاقيات الدعوة وسلوكياتها، ومناهجها ومفاهيمها، ومعانى الخير الكامنة فيها.

من أجل ذلك نركز كثيراً على التربية فى مجال العمل الإسلامى، سواء كان الهدف هو إيقاظ الأمة الغافية، وانتشالها من حالة الغثاء التى تردت فيها، وردها ردا جميلا إلى حقيقة الإسلام، أم كان الهدف ما نرجوه من وراء عودة الأمة العودة الصادقة إلى حقيقة الإسلام، من تحقق الوعد الربانى بإظهار هذا الدين على الدين كله: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (براءة: ٣٣)، والوعد النبوى: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار..».

ولعل فى ذلك بلاغا لمن كان يسأل عن دور التربية ومكانها فى العمل الإسلامى فى واقعنا المعاصر.

٢

إلى متى نظل نربى قبل أن نعمل؟

إلى متى نظل نربى دون أن نعمل؟

سؤالان ينبعان من تصور معين، سواء كان «العمل» المقصود عند السائل هو العمل الجهادى ضد الأعداء، أو كان العمل السياسى فى داخل المجتمع، أو كان هو

«التحرك» فى أى اتجاه . . فهؤلاء جميعا يلتقون عند نقطة معينة هى نظرتهم إلى «التربية» على أنها ليست عملا، وأن «العمل» شيء آخر غير التربية.

وهؤلاء جميعا نردهم إلى حقيقة من حقائق الدعوة، ربما كانت لم تأخذ مكانها واضحا فى حسهم. إن أعظم عمل قام به الرسول ﷺ هو تربية أصحابه رضوان الله عليهم فى فترة ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ (النساء: ٧٧). فى مكة، فقد كان ﷺ فى تلك الفترة ينشئ أداة التغيير التى ستغير العالم كله فيما بعد، والتى لم يكن بدونها ليتغير شيء فى واقع الأرض!

تمر هذه الفترة فى السيرة على أنها الفترة التى كان المؤمنون فيها محاصرين مضطهدين مضيقا عليهم من كل جانب، وقريش تقوم بتعذيبهم وتجويعهم وسد المنافذ كلها عليهم أملا فى القضاء عليهم.

نعم . . وإنها لكذلك.

ولكنها من جانب آخر كانت هى فترة الإعداد الهائل لأعظم أداة من أدوات التغيير فى التاريخ!

لقد اختار الله سبحانه وتعالى رسوله الخاتم من جزيرة العرب، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ كما قال سبحانه وتعالى فى سورة الأنعام[1] ـ وقد كان فى البيئة التى بعث فيها الرسول الخاتم ﷺ فضائل يعلمها الله ولا شك، ومزايا تجعلها أصلح بقعة فى الأرض لحمل الرسالة، ولكنها كانت فى حاجة إلى صقل وإلى تقويم لتكتسب صلاحيتها كاملة لحمل الدعوة والانتشار بها فى الآفاق. وكان هذا ما قام به المربى الأعظم ﷺ، فى الفترة التى لم يكن فيها «عمل» ظاهر فى واقع الأرض، لا فى رد أذى الأعداء، ولا فى حركة من أى نوع.

كان فى هذه البيئة شجاعة، ولكن الجاهلية كانت قد حولتها إلى حمية جاهلية قال الله عنها: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (الفتح: ٢٦)،

---

(١) قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

وهى فى هذه الصورة لم تكن تصلح لحمل الدعوة، ولا لنشرها فى الأرض. لقد كانت تحتاج إلى أن تُرَدّ إلى أصلها السوى، بأن تكون للّه لا للذات. للّه لا «للأنا». للّه لا للأنفة وإباء الضيم!

وكان فى هذه البيئة كرم، ولكن الجاهلية كانت قد حولته إلى البذل ﴿ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ (النساء: ٣٨). وهو فى هذه الصورة لم يكن يصلح لحمل الدعوة ولنشرها فى الأرض. لقد كان يحتاج إلى أن يرد إلى أصله السوى، بأن يكون إنفاقا فى سبيل اللّه، لا من أجل الذكر، ولا من أجل المفاخرة والمباهاة!

وهكذا كل الفضائل التى كانت البيئة تحتوى عليها، ولكن كانت الجاهلية قد أفسدت منطلقها، وأبعدتها عن أصلها السوى الذى ينطلق منه «الإنسان الصالح».

وكان فى هذه البيئة سلبيات - إلى جانب الشرك الذى جاءت العقيدة الجديدة لتجتثه من جذوره - من أبرزها جعلها رابطة الدم هى الرباط الأول والأوثق والأعلى الذى لا يدانيه رباط آخر، والمتعلق بعرف الآباء والأجداد، والثارات التى لا تنتهى بين القبائل بعضها وبعض، والتى منعت تكوين «الأمة» زمنا لا يعلمه إلا اللّه، من قوم يملكون كل المقومات التى يمكن أن تنشئ أمة فى واقع الأرض، من وحدة الجنس ووحدة اللغة ووحدة الأرض ووحدة الأعراف والعادات!

ولم تكن هذه الصورة صالحة لحمل الدعوة ونشرها فى الأرض، وكانت فى حاجة إلى إصلاح جذرى يوجد رباطا آخر، يكون هو الأول والأوثق والأعلى الذى تندرج تحته الروابط الأخرى كلها إذا اتحدت معه فى الطريق والغاية، وتنفصم عنده الروابط كلها إذا خالفته فى الطريق والغاية، وهو رباط العقيدة فى اللّه الواحد، وتستمد من هذا الرباط الوثيق «أُخوّة» أقوى وأوثق من أخوة الدم، تكون هى الملاط الذى يجمع اللبنات لتكوين «أمة» تكون ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾.. أمة العقيدة.

وكان هذا كله فى حاجة إلى «عمل» يعمل..

وكان القائم بالعمل المطلوب هو المربى الأعظم، رسول اللّه ﷺ، سيد الأولين والآخرين، سيد الأنبياء والرسل عليهم صلوات اللّه وسلامه أجمعين.

وكان هذا العمل - كما أشرنا آنفا - أعظم عمل قام به رسول اللّه ﷺ، لأنه هو العمل الذى بدونه لم يكن ليتم شىء فى واقع الأرض.

ونحتاج - فى واقعنا المعاصر - إلى أن نقف وقفة طويلة عند هذه الحقيقة، لنتدبرها جيدا، ونعطيها وزنها الحقيقى فى سير الأمور.

وقد يكون من العوامل التى تجعل بعضنا لا يقف هذه الوقفة المتأنية عند هذه الحقيقة العظيمة، ظَنُّنا أن الرسول ﷺ بذل ما بذل من جهد لأنه كان يواجه جاهلية عاتية، كانت فى حاجة بالفعل إلى جهد جهيد لإخراجها من جاهليتها، وإدخالها فى الإسلام. أما نحن فنعيش فى مجتمع يقر بوحدانية اللّه، ولا يعبد أصناما ولا أوثانا كأوثان الجاهلية، فوضعنا مختلف.

ينظرون إلى زاوية واحدة من زوايا الأمر..

ينظرون إلى «الاعتقاد» الذى ينطق باللسان، ويستسر فى الجنان، وهو أمر له وزنه بلا شك، على الرغم مما يعتور الاعتقاد ذاته من آفات عند كثير من الناس، مما يتحدث عنه كثير من الدعاة فى مشارق الأرض ومغاربها.

ولكن أين العمل بمقتضى هذا الاعتقاد ليشكل واقعا ملموسا يعيشه الناس فى دنيا الواقع؟

أين نحن من تحكيم شريعة اللّه؟

أين نحن من أخلاقيات لا إله إلا اللّه؟: الإخلاص - الصدق - الأمانة - الوفاء بالعهد - التعفف عن ظلم الآخرين وهضم حقوقهم؟

أين نحن من ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ١٩)؟

أين نحن من «إن اللّه يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»؟

أين نحن من مئات ومئات من توجيهات اللّه ورسوله للأمة المؤمنة؟

ولماذا - إذن - قد صرنا غثاء كغثاء السيل؟ ولماذا تداعت علينا الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها؟ إن من أعظم ما ابتليت به الأمة فى واقعها المعاصر، أن صار

الإسلام فى حسها هو النطق باللسان، أو هو على أكثر تقدير ما نطق باللسان، واستسر فى الوجدان، أما العمل فليس داخلا فى مسمى الإيمان!!

ويتساءل من يتساءل: إلى متى نربى دون أن نعمل؟!

فلنكن صرحاء مع أنفسنا فى مواجهة واقعنا..

إننا فى كثير من الأحيان نفتقد أخلاقيات كانت الجاهلية العربية تعتز بها وتمارسها - وهى جاهلية - ولا تفرط فيها، منها إباء الضيم، ومنها الصدق، ومنها الوفاء بالعهد، ومنها بذل النفس رخيصة فى سبيل الشرف..

صحيح - كما قلنا - أن الجاهلية كانت قد لَوَتْها عن أصلها السوى الذى ينبغى أن تكون عليه، فكانت فى حاجة إلى تقويم.. ولكنها كانت موجودة، وكانت جذورها حية فى النفوس.. ونحن الآن - فى كثير من الأحيان - نبحث عنها فى أيما صورة فيعيينا البحث!

إن أمر هذا الدين عظيم..

إنه ليس شكلا بلا مضمون.. ولو كان شكلا بلا مضمون فما كان ليستحق الجهد الذى بذله رسول الله ﷺ فى مكة ولا فى المدينة منذ بعثته ﷺ إلى آخر لحظة من لحظات وجوده على الأرض.

بل لو أنه كان شكلا بلا مضمون لما وقفت قريش تحاربه كل هذه الحرب التى استغرقت سنوات، وأنتجت ما أنتجت من آلام وعذابات!

وإنما بذلت قريش ما بذلت من جهد لأنها كانت تدرك أن الشكل وراءه مضمون، وكانت تكره المضمون ولا تحب أن تُقرّ به، كبرا وجهالة ولددا فى الخصومة واعتزازا مريضا بتراث الآباء والأجداد..

والأمة اليوم - إلا ما رحم ربك - تريد أن تمارس الإسلام شكلا بلا مضمون، ولهذا أصبحت غثاء كغثاء السيل.

* * *

إن «العمل» التربوى المطلوب اليوم عمل ضخم.. لا هو بالهيّن ولا هو باليسير..

لقد كانت العقبة الكبرى أمام رسول الله ﷺ أنه أمام قوم يرفضون أن يقولوا لا إله إلا الله، لأنهم يرفضون الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له، فكانوا يقولون كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص: ٥).

والعقبة الكبرى أمام الدعاة اليوم أنهم أمام قوم يقولون بأفواههم لا إله إلا الله، ولكنهم يرفضون أن يكون لها مقتضيات فى واقع حياتهم، ويرفضون أن يقروا بأن عدم العمل بمقتضياتها يفرغها من مضمونها الحقيقى، ولا يجعل لها واقعا محسوسا ملموسا هو الذى أنزل هذا الدين من أجله، وجَهدَ الرسول ﷺ فى تكوينه.

وحين آمن من آمن بالرسول ﷺ، ودخلت فى أعماق قلبه عقيدة لا إله إلا الله، زالت العقبة الكبرى، وصارت القلوب مستعدة للتلقى، والسلوك مستعدا للتشكيل. لا نقول بلا جهد يبذل من جانب المربى ومن جانب المتلقى. كلا! فبناء النفوس أمر يحتاج دائمًا إلى جهد يبذل، سواء من المربى أو من المتلقى.. ولكنه يكون أيسر - ولا شك - حين تكون النفوس مقبلة والقلوب مشروحة.

والأمر فى واقعنا المعاصر ليس بالسهل ولا بالهين.. إنك لا تبذل جهدا على الإطلاق فى أن تجعل أى إنسان يقول لا إله إلا الله! فهو يقولها صباح مساء، عشرات من المرات فى اليوم الواحد أو مئات.. ولكنك فى حاجة إلى جهد كبير تبذله لتجعله يزيل من قلبه أولا آثار الفكر الإرجائى الذى يقول إن الإيمان هو النطق والإقرار، وليس العمل داخلا فى مسمى الإيمان، ثم لكى يتجه إلى العمل فى واقع حياته بمقتضيات لا إله إلا الله، سواء فى الحياة العامة بتحكيم شريعة الله، أو الحياة الخاصة بالتخلق بأخلاقيات لا إله إلا الله.

وإذا كان تركيزنا فى هذه الصفحات على إعداد الدعاة، وهم الأداة التى يرجى أن تغير أحوال الأمة فتخرجها من حالة الغثاء التى أصابتها، وتعيدها إلى حقيقة الإسلام، فإن من لوازم هذا الإعداد أن يعلموا موطن الخلل فى الأمة التى يقومون بالدعوة فيها، ويعلموا كذلك وسائل العلاج. وإذا كان موطن الخلل الأكبر فيها عدم العمل بمقتضيات لا إله إلا الله فى دنيا الواقع، والاكتفاء فى أمرها بالنطق والإقرار، فإن من ألزم اللوازم للدعاة أن يكونوا هم بريئين من هذا الخلل، وأن

يكونوا بفكرهم وسلوكهم ومشاعرهم نموذجا لما يدعون الناس إليه، وإلا فلن يبرأ الناس من أمراضهم إذا رأوا أطباءهم يشاركونهم فى شىء منها!

من أجل ذلك نلح كثيراً على دور التربية فى العمل الإسلامى، ونراه ركنها الأصيل، قبل القدرة على التجميع، والقدرة على إثارة المشاعر وإشعال الحماسة فى قلوب الناس، وكلها مطلوب، ولكن الحاجة إليها درجات، وإبراز النموذج القدوة هو الحاجة الكبرى والمطلب الأول فى إعداد الدعاة.

ولقد كان هذا - كما أشرنا من قبل - هو العمل الأعظم الذى قام به رسول الله ﷺ، والذى جعل الأهداف العظيمة كلها ممكنة بعده: نشر الدعوة، والجهاد فى سبيلها، وبناء الأمة الفريدة فى التاريخ.

وإذا كانت الأداة الكبرى التى استخدمها رسول الله ﷺ فى تربية أصحابه هى تعميق الإيمان بالله واليوم الآخر، حتى يصبح الله حاضرا فى النفوس فى كل لحظة، واليوم الآخر ماثلاً فى المشاعر فى كل خطوة، فالأداة هى الأداة، فى أول الطريق، وفى كل خطوة فى الطريق. ولكن ذلك كله كان بعد وجود القدوة فى شخصه ﷺ، ليكون بشخصه هو الترجمان الحى لما يدعو الناس إليه، وهو وسيلة الإيضاح للناس، لكى يتبعوه على بصيرة، ويقتدوا به عن اقتناع: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ (الأحزاب: ٢١).

٣

إلى متى نظل نربى؟ ربينا بما فيه الكفاية. فلننظر ماذا يجب أن نفعل بعد ذلك.

يشتمل هذا التساؤل على قضيتين تحتاجان إلى مراجعة.

القضية الأولى هى الظن بأن التربية مرحلة معينه من مراحل العمل الإسلامى، يتجه العمل بعدها إلى أمور أخرى.

والقضية الثانية هى الظن بأننا غطينا كل المجالات المطلوبة فى ميدان التربية، وآن لنا أن نبحث عن شىء آخر نوجه إليه جهدنا.

فأما القضية الأولى فسوف نتناولها فى هذا الفصل . وأما القضية الثانية فسوف نتناولها فى الفصلين القادمين حين نتحدث عن بعض المجالات التى لم تستوف حظها من الاهتمام، والمجالات التى لم يتجه الاهتمام إليها أصلا ، لنعلم هل ربينا فعلا بما فيه «الكفاية» أم يحتاج الأمر إلى مزيد!

* * *

الذين يظنون أن التربية مرحلة من مراحل العمل الإسلامى ، تُسْتَوْفَى فلا تعود فى حاجة إلى الاهتمام بها ، لكى تنصرف جهودنا إلى أمور أخرى، نسوق لهم من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة ما يدحض هذا الظن .

انظر إلى هذه الآية من سورة النساء : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ (النساء : ١٣٦) .

لو أن الخطاب فى الآية كان للذين لم يؤمنوا بعد ، ليدعوهم إلى الدخول فى الإيمان ، فهذا أمر طبيعى لا غرابة فيه ، ولا يدعو إلى التوقف عنده ، ففى القرآن الكريم مئات من الآيات موجهة إلى الذين لم يؤمنوا بعد تدعوهم إلى الإيمان ، وإلى الذين يعاندون الإيمان ويعرضون عنه تدعوهم إلى أن يتخلوا عن إعراضهم ويستجيبوا إلى الدعاء .

ولكن الذى يستلفت النظر فى الآية ، ويدعو إلى الوقوف عندها ، والتدبر فى آفاقها وأعماقها أن الخطاب فيها للذين آمنوا : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ والخطاب هو من عند الله سبحانه وتعالى ، الذى يقول الحق ، ويشهد بالحق ، ولا يشهد إلا بالحق . فالمخاطبون مؤمنون بالفعل ، بشهادة الحكيم العليم ، الذى يعلم إيمانهم ، ويخاطبهم بالصفة التى يعلمها فيهم . فما الذى يطلب منهم رب العالمين فى هذه الآية؟

إنه يطلب منهم أن يؤمنوا! : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ﴾ .

وبأى شىء هم مطالبون أن يؤمنوا؟ ﴿ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ

﴿ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ وهم - بداهة - لا يسمون مؤمنين إن لم يؤمنوا ﴿ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ . فلا يدعوهم الله مؤمنين ، ولا يناديهم بلقب الإيمان ، إلا إذا كان قد تحقق منهم الإيمان بالله والرسول والقرآن وما نزل من الكتب قبل ذلك .

أى أنهم - بداهة - مؤمنون بما هم مطالبون بأن يؤمنوا به! فما دلالة ذلك؟

دلالته واضحة . .

أى حافظوا على إيمانكم . استمروا فيه . لا تغفلوا عنه . لا ترجعوا عنه . لا تَفْتُرُوا عن المحافظة عليه . لا تفتروا عن معاهدته ورعايته وتغذيته وتقويته والحرص عليه .

يقوى هذا المعنى التهديد المتضمن فى التعقيب الوارد فى آخر الآية : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ . ففى هذا التعقيب - فضلا عن التفصيل فيما هو من متطلبات الإيمان - تهديد واضح لمن أهمل شيئا من هذه المتطلبات فلم يعطها حقها من الإيمان الصادق المخلص العميق .

مرة أخرى نسأل : ما دلالة هذا؟

لماذا يؤكد الله كل هذا التأكيد على شيء يُعَدّ من البديهيات بالنسبة للمؤمن؟

لا بد من أن تكون هناك دواعٍ لهذا التأكيد ، يعلمها الله ، ويعلم أنها تحتاج إلى تنبيه لكى لا يغفل عنها الإنسان . .

أفلا نتدبر هذه الدواعى؟ بلى! والبيان موجود فى كتاب الله :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (آل عمران : ١٤) .

إنها هذه! الفتنة بمتاع الحياة الدنيا! الفتنة التى تجعل الإنسان ينسى ويفقد عزيمته : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (طه : ١١٥) .

وهى الفتنة التى يحذّر منها المؤمنون وهم مؤمنون، لكى لا ينسوا: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥). فهم مؤمنون بشهادة ربهم، ولكنهم عرضة لأن ينسوا، ولذلك يذكّرون.

إن هذه الشهوات نابعة من داخل النفس.. من أعماقها.

ألم تر إلى الآية الكريمة لم تقل: زينت للناس الشهوات، وإنما قالت: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾! فهى ليست فقط مزينة، بل حبها مزين! أى أنها واغلة فى الأعماق. ولله حكمة فى جعلها هكذا واغلة فى الأعماق، فهى المحركات التى تحرك الإنسان ليعمل فى عمارة الأرض، ولولا قوة دفعها للإنسان ما تحرك، ولقعدت به العقبات عن العمل. ولكنها فى الوقت ذاته مردية للإنسان إذا استجاب لهواتفها بغير ضابط. وهنا «الابتلاء» - بمعنى الاختبار - الذى يوضع فيه الإنسان فى كل لحظة من لحظاته الواعية فى الأرض: أينجرف مع الشهوات إلى حيث يمضى به هواه، فيغرق فيها فى الدنيا، ويتعرض للعذاب فى الآخرة، أم ينهى النفس عن الهوى، فيكتفى منها بالقدر الذى لا يُرْدى ولا يُطْغى، وينال فى الآخرة رضوان الله وجنته؟ وقد زوده الله بالأداة التى يستطيع بها ضبط شهواته عند القدر المعقول وسماها «الأفئدة»!: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨).

ويلاحظ فى الآية الكريمة من سورة آل عمران أنها لم تحرّم ذلك المتاع. وقد جاء فى سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا[١] خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ[٢]﴾ (الأعراف: ٣٢). إنما حرم تجاوز الحد الذى أباحه الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣).

إنما تقول آية آل عمران: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٥) أى

---

(١) أى بالاشتراك مع غيرهم فى الحياة الدنيا.

(٢) أى لا يشاركهم فيها أحد فى الحياة الآخرة. بل تكون لهم وحدهم.

خير من الانسياق وراء هواتف المتاع الأرضى، فهى لا تحرّمه فى حدوده التى أباحها الله، ولكنها تنشئ توجيها تربويا يجعل الإنسان قادرا على الضبط فى الحدود التى أباحها الله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران: ١٥ ـ ١٧).

فحين يتجه الإنسان إلى هذه الآفاق العليا، فيكون من الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار، يجد فى نفسه خفة ترفعه عن ثقلة الشهوات، فيرتفع بلا جهد، ولا يعود يحس بالحرمان مما يوفره المتاع الزائد من لذائذ حسية، بل يحس بمتعة أكبر هى القدرة على الارتفاع. وتلك ـ كما أسلفنا ـ من أروع وسائل التربية فى المنهج الربانى: التربية بالتحبيب والترغيب فى الآفاق العليا مع الإلزام والتشديد فى الحد الأدنى الذى لا تستقيم بدونه الحياة.

وخلاصة الدرس الذى استخلصناه من كتاب الله أن التربية لا تنقطع، ولا تتوقف عند فترة معينة، ولا ينصرف الناس عنها إلى أمر آخر، لأن الأمر الذى استوجبها دائم لا ينقطع ولا يتوقف، وهو الرغبة الفطرية فى متاع الأرض، الذى يحتاج إلى ضبط دائم لكى لا يتجاوز الحد. إنما تستطيع التربية ـ التى لا تتوقف ـ أن تخفف من اندفاع الدوافع الفطرية، فيتعود الإنسان ضبطها بغير جهد كبير، كما يتعود سائق المركبة أن يقودها بغير جهد كبير بعد أن يكتسب الخبرة والمران، ولكن على ألا يغفل لحظة واحدة عما حوله، فلحظة غفلة واحدة قد توقعه فيما لا خلاص منه.. كما تستطيع التربية المثمرة التى يتلقاها المتلقى أن تجعله يكتفى ـ فى لحظة من اللحظات ـ بما تلقاه، لأنه يجعل من ذات نفسه رقيبا على ذات نفسه، وتلك ـ فى التعبير القرآنى ـ هى «النفس اللوامة» ـ وإن كان لا يستغنى قط عن القدوة، سواء كانت متمثلة فى الأسوة الدائمة فى رسول الله ﷺ، أو فى القائد الذى يقود العمل الإسلامى فى وقت من الأوقات.

* * *

أوردنا فيما مضى درسا من القرآن الكريم له دلالته الواضحة فى كون التربية عملا

دائما لا ينقطع، ولا ينصرف الإنسان عنه إلى غيره، إنما يحمله معه في كل خطوة من خطواته إلى أن تنتهي حياته على الأرض. ونورد هنا مثالا من السنّة المطهرة يحمل ذات الدلالة.

قال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع:

«أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا».

«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع. ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث وكان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل. وربا الجاهلية موضوع. وأول ربا من ربانا أضع ربا العباس ابن عبد المطلب فإنه موضوع كله.

«اتقوا الله في النساء. فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح. ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

«وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله.

«أيها الناس إنه لا نبي بعدي. ولا أمة بعدكم. ألا فاعبدوا ربكم، وصلّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها أنفسكم، وتحجون بيت ربكم، وأطيعوا أولات أمركم، تدخلوا جنة ربكم.

«وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد» ثلاث مرات[1].

والدلالة في الخطبة واضحة. إنها التذكير بما سبق أن وعاه المسلمون من كتاب الله ومن أقوال الرسول ﷺ، ليس فيها من جديد إلا الإخبار بأنها قد تكون خطبة

(١) الرحيق المختوم، صفي الدين المباركفوري، ص ٥١٦-٥١٧، من منشورات رابطة العالم الإسلامي، الطبعة الأولى..

الوداع التى لا يلتقى الرسول بعدها بأصحابه رضى الله عنهم. ومعنى هذا من جانب الرسول ﷺ أنه يتابع تربية أصحابه حتى آخر لحظة من لقائه معهم، ومعناه من جانب المتلقين أنهم فى حاجة إلى أن يتلقوا إلى آخر لحظة من لقائهم مع المربى، لا لتأسيس شىء جديد بالضرورة، ولكن للتذكير بما سبق أن تلقوه. فالحاجة إلى التذكير لا تنقطع ما دامت الحياة.

والعبرة فى خطبة الوداع أنها جاءت بعد جهد متصل من جانب الرسول ﷺ، ثلاث عشرة سنة فى مكة، وعشر سنوات فى المدينة، فلا الرسول ﷺ قال فى نفسه ولا قال للمؤمنين: ربيت بما فيه الكفاية فلا حاجة إلى المزيد، ولا المؤمنون قالوا فى أنفسهم: سمعنا ذلك من قبل فلا حاجة بنا إلى المزيد. إنما يعلم المربى القدير ﷺ أن النفس البشرية لا تستغنى عن التذكير، ويعلم المتلقون أنهم فى حاجة دائمًا إلى التذكير.

٤

ما جدوى التربية إذا كنا نربى ثم يأتى الأعداء فيأخذون الذين ربيناهم فيسجنونهم أو يقتلونهم أو يحصرونهم، فيضيع الجهد الذى بذلناه كله؟

ربما بدا لأول وهلة أن هذا تساؤل لا يستأهل الاهتمام به لعدم جديته! ولكنى أعتقد أن له دلالة خطيرة ينبغى الاهتمام بها ومعالجتها لأنها ذات أثر فى العمل الإسلامى.

دلالتها أن بعض الناس قد أصابهم الإحباط لكثرة ما يرون من الضربات التى توجه للعمل الإسلامى بكل أنواعه وفى كل ميادينه وعلى مستوى الأرض بأجمعها.

ولا شك فى أن من هدف الضربات إيجاد اليأس فى النفوس، حتى يكفوا عن العمل فى هذا الميدان، الذى يتأذى الأعداء منه، ويعملون للقضاء عليه.. ويعلم الأعداء جيدا أنه إن لم ييأس المسلمون من إمكان عودة الإسلام إلى التمكين فى الأرض فسيظلون يجاهدون لتحقيق ذلك التمكين بكل ما يملكون من الوسائل، كما

يعلم الأعداء أنهم لن يستريحوا من عدوهم هذا إلا إذا تمكن اليأس من النفوس، وأيقن العاملون أنه لا فائدة من العمل، فانصرفوا عنه..

ولهذا يمعنون فى التنكيل والتقتيل والتعذيب والتشريد وسد المنافذ، ليصلوا إلى هدفهم، وإن ظلوا يوهمون الناس أنهم لا يحاربون الإسلام (!!) إنما يحاربون التطرف، أو يحاربون الإرهاب، أو يحاربون استغلال الدين لأهداف لا علاقة لها بالدين!

وأيّا كان الستار الذى يحاربون الإسلام من ورائه، فهو ستار شفاف، لا يخفى ما وراءه، ولا يخفى مَنْ وراءه، وذلك من فضل الله!

حين جاء الاستعمار الصليبى إلى العالم الإسلامى أول مرة جاء ومعه أمل عريض فى القضاء على الإسلام بالتنصير، فجاء معه بجيوش من المنصرين، وأطلق لهم العنان، وأعطاهم من الإمكانات المالية والمادية والسياسية ما ظنوه كفيلا بالقضاء على الإسلام فى بضع سنوات(١). ولكنهم اصطدموا بفشل ذريع على أرض الواقع لم يكونوا يتصورونه، إذ ظنوا أن أحوال المسلمين التى رأوها يومئذ من الضعف والتخلف والجهل والعزلة ستيسر لهم عملية التنصير، فإذا بهم يفاجئون باستمساك الناس بعقيدتهم رغم ضعفهم وتخلفهم وجهلهم وعزلتهم. فلجئوا إلى أسلوب آخر.

جاء فى كتاب عن عمل المنصرين عنوانه: «الإرساليات التنصيرية وأعمالها Missions and Missionary» أن اللورد كرومر الحاكم البريطانى لمصر وقت الاحتلال ضيق على المنصرين فشكوه إلى الحكومة البريطانية، فأرسلت الحكومة الشكوى إليه ليرد عليها، فجمع المنصرين وقال لهم: هل تتصورون أننى يمكن أن أضيق عليكم؟! ولكنكم تقومون بأعمال استفزازية فتخطفون الأطفال والشيوخ وتنصرونهم بالقوة، فيستفز ذلك المسلمين فيتمسكون بعقيدتهم أكثر. وقد اتفقت مع شاب تخرج حديثا فى كلية اللاهوت Trinity College بلندن، ليجىء إلى مصر ويضع مناهج تعليمية ستحقق لكم كل أهدافكم(٢)!

---

(١) اقرأ إن شئت كتاب «الغارة على العالم الإسلامى» تأليف أ. شاتلييه وتعريب محب الدين الخطيب.
(٢) راجع هذه القضية إن شئت فى كتاب «واقعنا المعاصر».

وفى المؤتمر التنصيرى الذى أقيم فى القدس عام ١٩٣٥ برئاسة الأب زويمر، قام الخطباء من المنصرين فقالوا إنهم فشلوا فى مهمتهم، فقد فتحوا المدارس والملاجئ والمستشفيات وبذلوا الأموال، ومع ذلك لا يدخل فى النصرانية إلا طفل صغير، اختطف من أهله قبل أن يعلم عقيدة أهله، أو شيخ كبير جاء من أجل المال ولكنهم لا يضمنون حقيقة عقيدته. فقام الأب زويمر فقال: استمعت إلى إخوانى الخطباء، ولست موافقا على ما يقولون. إن مهمتنا ليست تنصير المسلمين، فهذه مهمة لا طائل وراءها، ولكن مهمتنا هى صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وفى هذا نجحنا نجاحا باهرا بفضل مدارسنا التنصيرية ومناهج التعليم التى وضعناها للعالم الإسلامى(١)!

لقد كان من أهداف المناهج التعليمية التى وضعها الاستعمار الصليبى للعالم الإسلامى تخريج أجيال من المتعلمين لا يعلمون عن الإسلام إلا الشبهات التى يثيرها الغرب حول الإسلام، ويبث فى أذهانهم أن الحضارة الأوربية هى الحياة، وهى المثل، وهى النموذج، وهى الهدف الذى يجب أن يسعى إليه المسلمون ليخرجوا مما هم فيه من جهل وتخلف وضعف وانعزال.

وقامت هذه المناهج بالفعل ـ بمساندة وسائل الإعلام المختلفة ـ بتخريج عدد من المتعلمين، استخدمهم الغزو الصليبى فى محاولته للقضاء على الإسلام على مذهب الأب زويمر، لا بالتنصير المباشر، ولكن بصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، واتخاذ الحضارة الغربية بديلا عنه.

وفى النصف الأول من القرن العشرين بدا كأنما تحققت للأعداء أهدافهم، إذ كانت دعوات التغريب قد انتشرت فى العالم الإسلامى، وقام يدعو إليها فى كل مكان من العالم الإسلامى دعاة ينفخ فيهم الاستعمار، ويسلط عليهم الأضواء، ويظهرهم عن طريق وسائل الإعلام التى يملكها على أنهم طلائع النهضة التى ستغير حياة الناس.

ولكن الغرب ـ بقدر من الله ـ كان قد ارتكب حماقتين متواليتين لم يقدّر أبعادهما

(١) راجع أخبار هذا المؤتمر فى كتاب «المخططات الصليبية لمكافحة الإسلام» تأليف الشيخ محمد محمود الصواف.

حين أقدم عليهما مدفوعا بحقده الصليبى، ولم يتصور أنهما ستفسدان عليه كثيرا من جهده الذى بذله فى إبعاد الأمة عن الإسلام.

كانت الحماقة الأولى هى القضاء على الدولة العثمانية ـ دولة الخلافة الإسلامية ـ فى الحرب الكبرى الأولى، ظنا من الصليبية المتحالفة مع الصهيونية أن القضاء عليها سيقضى على الإسلام، فكان من قدر اللّه أن انبعثت من ذات الحدث ـ حدث القضاء على الدولة والخلافة ـ حركة إسلامية قالت لنفسها وللناس: إذا كانت الخلافة قد ضاعت، فلماذا لا نعمل على إعادتها من جديد؟!

وكانت الحماقة الثانية ـ التى كانت الحماقة الأولى تمهيدا لها ـ هى إنشاء إسرائيل فى داخل الوطن العربى الإسلامى، لتكون كما جاء فى تقرير لورد بترمان سنة ١٩٠٧ «بمثابة الشوكة تخز العملاق كلما أراد أن ينهض»(١). فأراد اللّه أن يكون هذا الحدث بالذات هو انطلاق الشرارة التى لم يخب أوارها حتى اليوم، والتى بعثت روح الجهاد فى الناس بعد أن كانت قد خبت وعلاها الرماد!

وفى النصف الثانى من القرن العشرين قام الغرب الصليبى المتعاون مع الصهيونية العالمية بزعامة أمريكا بحماقة ثالثة، أشد فى تأثيرها من الحماقتين السابقتين وإن كانت امتدادا لهما ـ وامتدادا فى الوقت ذاته لإثارة رد الفعل ـ وهى زرع مجموعة من الانقلابات العسكرية فى العالم الإسلامى والعربى بصفة خاصة، تقوم بمحاولة القضاء على التيار الإسلامى بالقتل والتعذيب والسجن والتشريد والحصار الخانق فى كل اتجاه.

ولكن قدر اللّه هو الغالب: ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (يوسف: ٢١). لقد كانت نتيجة ذلك الجهد كله ـ بقدر من اللّه ـ أن اتسعت الحركة الإسلامية وازدادت وعيا بما يحاك لها من ألوان الحرب، كما كان من آثارها أمر لم يقدّره أحد فى وقته ـ من المسلمين أو من أعدائهم ـ وهو هجرة كثير من الشباب الإسلامى تحت الضغط إلى أوربا وأمريكا، ونشر الإسلام هناك!

واليوم يرتكب الغرب الصليبى بزعامة أمريكا حماقته الرابعة بالتأييد المطلق

---

(١) راجع تقرير لورد بترمان من منشورات الجامعة العربية بالقاهرة.

للمذابح التى ترتكبها إسرائيل، وإعطائها صفة الدفاع المشروع عن النفس، ووصف المقاومة الشرعية بأنها إرهاب يجب القضاء عليه، بالإضافة إلى ما يحدث فى العراق، وفى سجون التعذيب، ودعوة أمريكا لتغيير المناهج فى العالم الإسلامى وتفريغها من الإسلام، ومحاربة العمل الخيرى الإسلامى وإفساح المجال لأعمال التنصير.. وما لا يعلمه إلا الله من الحماقات!

* * *

حصيلة الأمر أن الغرب لم ييأس حتى اللحظة من محاولة القضاء على الإسلام، بل تزداد شهيته إلى ذلك ضراوة، ومن وسائله التى يستخدمها محاولة بث اليأس والإحباط فى نفوس العاملين فى المجال الإسلامى، فما موقف المسلمين من هذا الأمر، وما واجبهم؟

فلننظر أولا إلى الواقع..

إن حماقات أمريكا وحماقات إسرائيل مدد من عند الله للعمل الإسلامى..

ولنذكر بالنسبة لحماقات أمريكا أن الذى فتن المسلمين عن إسلامهم منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادى كان هو لألاء الحضارة الغربية بما تحمله من شعارات الحرية والديمقراطية واحترام إنسانية الإنسان واحترام الآخر وحق تقرير المصير.. إلى آخر ما كان الغرب يرفعه من شعارات، يخايل بها للمخدوعين المستضعفين لينبذوا إسلامهم ويستعبدوا أنفسهم للغرب، فما بال هذه الشعارات اليوم على ضوء الحماقات التى ترتكبها أمريكا؟ أين الديمقراطية؟ أين الحرية؟ أين احترام الآخر؟ أين احترام إنسانية الإنسان؟ أفى سجن أبى غريب أم فى جوانتنامو؟ أم فى أسلحة الدمار الشامل التى تقتل النساء والأطفال والشيوخ وتدمر كل أسباب الحياة؟

ولنذكر بالنسبة لحماقات إسرائيل أنها أوصلت الناس إلى المرحلة التى يستوى فيها الموت والحياة، والتاريخ شاهد على أن الانفجار يحدث دائمًا حين يصل الناس إلى المرحلة التى يستوى فيها الموت والحياة!

إن الواقع أن حماقات أمريكا وحماقات إسرائيل قد أوجدت من الوعى عند الناس ما لم تكن مئات الكتب ولا مئات المحاضرات ولا مئات الدروس قمينة بأن

توجده: الوعى بأن الذى يُحَارَب فى حقيقة الأمر هو الإسلام، ولا شىء غير الإسلام! ولهذا الوعى أثره الأكيد فى سير التاريخ! حتى وإن كان بطىء المفعول!

هذا أمر الواقع..

فلننظر فى أوامر السماء، فى كتاب اللّه وفى سنة رسوله ﷺ:

﴿ **إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ** ﴾ (النساء: ١٠٤) ولنركز حديثنا عن التربية بالذات.

لقد كان رسول اللّه ﷺ يعلم - من طريق الوحى - أن فريقا من أصحابه رضوان اللّه عليهم سيقتل فى فتنة عثمان رضى اللّه عنه، وفتنة الاقتتال بين على ومعاوية، فهل كفّ رسول اللّه ﷺ عن تربيتهم لعلمه أنهم لن يعيشوا طويلا بعده؟ وهل اختص أحدا من الذين توقع أن يعيشوا مدة أطول بما لم يبذله للذين علم - من طريق الوحى - أنهم سيموتون عن قريب، كعمار بن ياسر مثلا، الذى قال له: إنما تقتلك الفئة الباغية؟

وكان يوسف عليه السلام يعلم - عن طريق الوحى - أن أحد صاحبى السجن سيصلب وتأكل الطير من رأسه، فهل كفّ عن هدايته لعلمه أنه لن يعيش طويلا بعد؟ وهل اختص الآخر الذى ظن أنه ناج منهما بما لم يبذله للذى علم أنه سيصلب وتأكل الطير من رأسه؟

فما تفسير هذا السلوك من المصطفى ﷺ ومن يوسف عليه السلام؟

إن الناس كلهم يموتون.. سواء قتلهم أعداؤهم أو ماتوا فى فراشهم، وسواء ماتوا بعد لحظة أو بعد مائة عام: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

فهل الأجدى لهم والأنفع لهم فى آخرتهم أن يموتوا مؤمنين، أم يموتوا على الكفر، أو يموتوا ناقصى الإيمان؟: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

هـذا مـن جـانـب . .

ومن جانب آخر يقول الرسول ﷺ : «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها ، فله بذلك أجر» (رواه الإمام أحمد) .

وحين تكون الساعة قائمة أو على وشك أن تقوم فاليقين المقطوع به أن الفسيلة لن تثمر . . فهى لا تثمر إلا بعد غرسها بسنوات . فلماذا يوجه الرسول ﷺ من كان بيده فسيلة أن يغرسها وهى - يقينا - لن تثمر ، بدلا من أن يوجهه إلى إلقاء الفسيلة جانبا والتوجه إلى الله بطلب المغفرة والقبول؟

الجواب فى نص الحديث : «فله بذلك أجر»!

إنها دعوة إلى العمل حتى آخر لحظة من العمر ، حتى والعمل لا ثمرة له فى الدنيا . . من أجل أجر الآخرة[1] . فإذا كان هذا هو الحال حيث لا ترجى ثمرة من العمل في الدنيا ، فكيف إذا كان أمامنا الوعد الحق بإظهار هذا الدين على الدين كله : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ (الصف : ٩) . والوعد الحق بالمعركة الحاسمة مع اليهود : «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتل المسلمون اليهود حتى يختبئ اليهودى وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا خلفى يهودى فتعال فاقتله . .» (رواه مسلم) .

وكيف ونحن مع قوم - بفضل الله - لا يكفون عن ارتكاب الحماقات التى تنبه الغافلين ، وتذكى الوجدان عند المسلمين؟!

إن الذى يدبر الأمر ويقدر المقادير هو الله سبحانه وتعالى وليس البشر . والله هو الذى قدر لهذا الدين أن يظهر على الدين كله ، مهما كره الكارهون ، ومهما دبر الحاقدون .

---

(١) اقرأ - إن شئت - فصلا بعنوان «فليغرسها» فى كتاب «قبسات من الرسول» .

مجالات تحتاج إلى تركيز

١ ـ التجـــرد للـّـه

نظرة سريعة إلى ساحة العمل الإسلامى تكشف أن هناك نقصا فى عنصر يُعَدّ من أهم العناصر فى العمل الإسلامى ، وهو التجرد للّه .

ولست أشير بذلك إلى اختلاف وجهات النظر القائمة فى الساحة . فالاختلاف فى ذاته ليس عيبا ، ولا هو ـ فى ذاته ـ بالأمر الخطير . وقد كان الصحابة رضوان اللّه عليهم يختلفون فيما بينهم ، ولكنهم لم يكونوا يفترقون حين يختلفون ، وهذا هو لب القضية .

إن المؤسف فى ساحة العمل الإسلامى ليس هو اختلاف وجهات النظر ، ولكنه التشرذم والتعادى والتخاصم والتنابذ والفرقة . .

ولو أن الأمر كان مجرد اختلاف وجهات النظر ، فهذا أمر مفهوم من طبائع البشر من ناحية ، ومن طبيعة الأحداث التى مرت بالأمة فى عهدها الأخير من ناحية أخرى .

فإذا كانت الأمة قد غفت قرنين من الزمان أو أكثر ، ثم بدأت تصحو ، وتتنبه إلى حالها وإلى ما يحيط بها من أحداث ، فمن الأمور التى لا تستغرب أن يقول أناس : طريق الخلاص من هنا ، وأن يقول آخرون : لا بل طريق الخلاص من هنا ، ويشيرون إلى طريق آخر ، وأن يقول قوم آخرون : لا من هنا ولا من هنا ، بل من هناك !

ولكن أن يستمر الخلاف طويلا دون أن تتقارب وجهات النظر نتيجة للدراسة

والتمحيص، فهذا أمر له دلالة سيئة. ثم الذى له دلالة أسوأ، أن تكون الخلافات مصحوبة بالتشرذم والتعادى والتخاصم والتنابذ والفرقة، فهنا يكمن المرض، وتكمن الخطورة.

* * *

وحين نرجع إلى المنهج الربانى المنزل على رسول اللّه ﷺ تتضح لنا أمور.

لقد كان رسول اللّه ﷺ شديد الانزعاج فى بدء الدعوة من الصد الذى قابلت به قريش دعوته، بينما يتوجه هو إليهم بكل الحب أن يهتدوا إلى النور الحق، ويخرجوا مما هم فيه من الظلمات. تدل على ذلك آيات عدة فى كتاب اللّه:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف: ٦).

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ (هود: ١٢).

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣).

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (الحجر: ٩٧).

وكان القرآن يتنزل على الرسول ﷺ يسرّى عنه، ويبين له أن هذا ديدن الكفار مع كل رسول، فلا يساوره الحزن من أجل ذلك ولا الضيق مما يلاقيه من كفار قريش:

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١).

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (الحجر: ١٢، ١٣).

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النحل: ١٢٧).

ويبين له كذلك أن الهداية بيد اللّه سبحانه وتعالى يهدى من يشاء ويضل من يشاء وليس بيد أحد، وأن مهمة الرسول ﷺ هى الدعوة إلى الهدى، أما ما يكون من نتائج الدعوة من هداية من يهتدى وضلال من يضل فهو شأن اللّه وحده، وليس شأن أحد من البشر حتى رسول اللّه ﷺ:

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص: ٥٦).

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٠٠).

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٦-١٢٩).

وبهذا التوجيه الربانى المتكرر خف الضيق عن صدر رسول اللّه ﷺ، ولم يعد يحزن على أولئك الذين يصدون عن الدعوة ويأبون الهدى ويعاندونه بالإصرار على الكفر كما كان يحزن فى بادئ الأمر ويضيق صدره منهم، وسلّم الأمر كاملا للّه، وإن كان هذا لم يثنه لحظة واحدة ولا درجة واحدة عن بذل الجهد كله فى الدعوة، والصبر على الأذى فى سبيلها، والدأب عليها فى كل مناسبة متاحة، بل كان التجرد للّه معينا على بذل الجهد والاستمرار فيه.

ويلاحظ أن السور المكية كلها لم يرد فيها وعد واحد بالتمكين لشخص رسول اللّه ﷺ فى أثناء حياته، إنما كان يقال له: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (الرعد: ٤٠).

فأما التمكين لهذا الدين فقد كان الرسول ﷺ على يقين منه من أول لحظة، حتى والمؤمنون فى مكة قليل مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس كما وصف

الله حالهم فى سورة الأنفال[1]. فحين ذهب إليه بعض المؤمنين وهو متوسد ذراعه بالكعبة يقولون: ألا تدعو لنا! ألا تستنصر لنا! قال عليه الصلاة والسلام: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب إلى صنعاء لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون» (رواه البخارى).

أما التمكين لشخصه صلى الله عليه وسلم فلم يرد إلا فى السور المدنية: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا** ﴾ (الفتح: ١ ـ ٣). ﴿ **وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الصف: ١٣).

ولهذا دلالته.. فقد أراد الله أن يتجرد قلب الرسول ﷺ حتى من الرغبة البشرية الطبيعية فى أن يرى التمكين فى عمره المحدود. وتجرد بالفعل، وتمت بذلك صياغة مشاعر الرسول ﷺ للمهمة الكبرى التى أرسل من أجلها، على عين الله وبتوجيهه كما قال عن موسى عليه السلام: ﴿ **وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** ﴾ (طه: ٣٩) فكانت نفسه ﷺ أعظم نفس خطرت على هذه الأرض، مستوفية كل الكمالات اللازمة للرسالة الخاتمة التى اكتمل بها الدين وتمت بها النعمة. ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾ (المائدة: ٣).

ثم ربى الرسول ﷺ صحابته رضى الله عنهم على التجرد لله، حتى قالت كتب السيرة: «حتى خلت نفوسهم من حظ نفوسهم».

لقد علم الله أن هذا عنصر شديد الأهمية فى أمر الدعوة، فصاغ عليه مشاعر الرسول الكريم ﷺ، وعلم رسول الله ﷺ بدوره أهمية هذا الأمر، فصاغ عليه قلوب الصحابة رضوان الله عليهم، ليعدهم لحمل التبعة الكبرى.

يعلم الله وهو الحكيم العليم أن الدعوة تحتاج إلى قلوب متجردة لله، ويعلم أن هذا أمر أساسى فى الدعوة.

---

(١) قال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ** ﴾ (الأنفال: ٢٦).

إن النفس البشرية تتنازعها نوازع شتى . . هكذا خلقها الله لحكمة يريدها .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (الإنسان : ٢) .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (الكهف : ٧) .

والابتلاء الأكبر هو أيهما يفضل الإنسان : نفسه وهواها ، أم الله ورسوله؟ : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» . .

وإذا كان هذا أمرا لازما لجميع البشر - وهو محور التكليف - فإنه بالنسبة للدعاة من ألزم الضرورات ، لأن مهمتهم هى الأعظم ، إذ كانوا هم ورثة الأنبياء ، وإذ كان النقص فى التجرد لله يعود على الدعوة بضرر بليغ .

إن من أكبر المخاطر التى يتعرض لها العمل الإسلامى الخلط الذى يحدث فى مرحلة من المراحل فى نفس الداعية بوعى أو بغير وعى بين شخصه وبين الدعوة . . فهناك خيط رفيع بين الدعوة والداعية يجعله أحيانا يخلط بين نفسه وبين الدعوة ، فيخلط بالتالى بين «مصلحة الدعوة» ومصلحته الخاصة ، وبين ما يصيبه هو وما يصيب الدعوة ، فيرى - بوعى منه أو بغير وعى - أن ما يكون فى مصلحته يصب فى مصلحة الدعوة ، وأن ما يقع منه الضرر على شخصه يكون ضررا للدعوة!

بعبارة أخرى يحدث الخلط بين الدعوة وبين «الأنا» التى تقوم بالدعوة .

و«الأنا» لها صور شتى : أنا وجماعتى وأفكارى وأتباعى وأعوانى وخصومى ومنافسى ومن يريد أن يكون أبرز منى ومن يريد أن يأخذ مكانى . . !

عندئذ يضطرب الميزان فى نفس الداعية ، وتبرز «الأنا» موهمة صاحبها أنه إنما يعمل لمصلحة الدعوة!

* * *

هذا الأمر الخطير مؤذ للدعوة أشد الإيذاء ، وهو حادث بالفعل ، نتيجة إعجاب كل ذى رأى برأيه ، وظنهِ أن رأيه هو الصواب الذى لا صواب غيره ، وأن رأى غيره مجانب للصواب . فضلا عن تقديرات أخرى تعتمل فى النفوس .

ولم يكن هذا ديدن الجيل الذى رباه رسول الله ﷺ على عينه، والذى كان عصره امتدادا لعصر النبوة، وامتداداً للأثر التربوى النبوى، الذى غيّر وجه الأرض. بل لم يكن هذا ديدن علمائنا الكبار فى أجيال تالية، فقد كان الواحد منهم يقول: «قولنا صواب يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب»، فأدوا أمانة العلم، وأمانة الكلمة، وكانوا متجردين لله حقا.

والمأساة أن أعداءنا يحاربوننا مجتمعين على حربنا، ونحن إزاءهم متفرقون لا تجتمع لنا كلمة، ولا يجتمع لنا موقف.

ولست أقول إننا يجب أن نجتمع ولو على خطإ، فاجتماع مثل هذا - حتى لو أمكن حدوثه - يضر ولا ينفع. ولست أقول كذلك إنه يجب أن ننبذ كل اختلاف فى الرأى، ففضلا عن كون هذا غير ممكن فى عالم الواقع، فإنه لا يتحقق إلا بمصادرة آراء قد يكون فيها نفع، وقد تثبت جدارتها فى جانب من الجوانب. إنما أقول فقط إننا يجب ألا نفترق حين نختلف، ويجب ألا تكون علاقة كل فريق بالآخر علاقة الخصام والتنابذ والتباعد والشقاق.

ولست حالما بحيث أعتقد أن تحقيق هذا الأمر ممكن فى القريب العاجل - إلا أن يشاء الله - ولا أن نداءً منى أو من غيرى يمكن أن يحققه فى القريب العاجل. بل أعتقد أن زمنا طويلا سيمضى، وجهدا كبيرا سيبذل لكى نصل إلى شىء من ذلك.

ولكنى أشير إلى أمرين أراهما أساسيين:

الأول أن هذه ضرورة لا غنى عنها لهذه الأمة.

إن الإسلام يحارب الآن فى كل الأرض، ويراد اجتثاث هذه الأمة من جذورها، ليستريح الأعداء مرة واحدة من عدوهم. ومن أشد ما يساعدهم فى مسعاهم الشرير هذا تفرق الأمة وتشرذمها وتباعدها وتخاصمها، وكون هذا حادثا بين الدعاة أنفسهم، الذين هم عدة الأمة فى صد هذه الحرب، وحُدَاتها إلى طريق النجاة.

والثانى أنه لا سبيل إلى الوصول إلى الهدف الذى نسعى إليه إلا بالتربية.

يجب على الدعاة أن يربوا أنفسهم أولا، ثم يربوا من يتلقون منهم، على التجرد

لله، فهذا هو العلاج الربانى لهذه الآفة التى تصيب البشر حين يغفلون عن الذكر الصحيح لله واليوم الآخر، فتبرز «الأنا» وتبرز معها الأهواء المفسدة، التى ما دخلت فى أمر إلا أفسدته.

والتربية عمل قد يكون بطيء الثمرة، ولكنه هو العلاج الذى لا علاج غيره. إنها هى التى تربى اليقظة فى داخل النفس، بحيث تفرق بين هواتف الرغبة وبين المصلحة الحقيقية، فتتجه النفس إلى المصلحة الحقيقية لا إلى هوى الرغبة.

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ... ﴾ (النساء: ١٣٦).

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ ﴾ بكافتكم، وكافة كل واحد منكم، أى بجميع ما يشتمل عليه كيان كل واحد منكم، فإن أى جزئية من كيان الإنسان لا تدخل فى هذا السِّلم يتلقفها الشيطان، الذى يحاول أن يتدسس إلى كل نفس ليصرفها عن الدخول فى السلم الربانى.

ونحن على يقين أن الله سينصر دينه، وسيظهره على الدين كله، لأن هذا وعد ربانى، والوعد الربانى لا يتخلف ولا يتحول: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٢، ٣٣).

ولكن القضية هى قضيتنا نحن.. أين نحن من موعود الله؟ أنحن من الذين رضى الله عنهم فأنار لهم سبيله، ثم شملهم برضوانه، أم نحن - والعياذ بالله - ممن تولوا فاستبدل الله بهم قوما آخرين؟.. ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٨).

وحين نصحو إلى هذه الحقيقة فى داخل نفوسنا فلعل هذا أن يعيننا على أنفسنا، فلا نخلط بين «مصلحة الدعوة» ومصالح «الأنا» التى تتشعب بنا فى شتى

الاتجاهات، والتى ينتج عنها ما هو قائم اليوم من التشرذم والتباعد والتنابذ والخصام!

٢ ـ الشـــورى

الشورى عميقة الجذور فى النظام الإسلامى كما أنزله الله، وكما بينه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بصرف النظر عن الممارسة الفعلية للأمة فى هذا الجانب خلال الأربعة عشر قرنا التى انقضت من تاريخها، فالإسلام حجة عليها وليست هى حجة عليه، وهى تصبح مستقيمة بقدر ما تنفذ من أوامر الله وتوجيهاته، وتصبح منحرفة ومقصرة بقدر ما تخالف عن أوامره وتوجيهاته، ويظل دين الله كما أنزل، لا يؤثر فيه انحراف من انحرف عن طريقه.

يدل على عمق جذور الشورى فى النظام الإسلامى أن الله جعل من أوصاف المسلمين الذين استجابوا لربهم ـ والذين هم موضع الرضا الربانى ـ أن أمرهم شورى بينهم، بإطلاق «الأمر» بما يعنى كل أمر، لا أمرا واحدا بعينه. يقول رب العالمين فى السورة التى سميت «سورة الشورى»: ﴿ **فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ** ﴾ (الشورى: ٣٦ ـ ٣٩).

فذكر الشورى من بين الصفات الأساسية التى يوصف بها المجتمع المسلم له دلالته، ووضعها بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة له دلالته كذلك، لا فى استحسان هذا الأمر بل فى فرضيته، فهو يذكر من بين الفرائض، لا بين المندوبات ولا المستحبات، ويأخذ حكمها بحكم السياق الذى وردت فيه.

ولعل من أشد ما يؤكد هذا الأمر، ويزيده وضوحا، ما جاء فى سورة آل عمران

بشأن معركة أحد. فالمعروف من كتب السيرة أن الرسول ﷺ استشار الصحابة فى أمر المعركة فكان من رأى الشيوخ المجربين من أهل المدينة ألا يخرج الجيش الإسلامى لملاقاة الأعداء خارج المدينة، بل ينتظرهم فيها حتى يأتوا، فإذا جاءوا سهلت هزيمتهم داخل المدينة بغير جهد كبير ولا خسائر كبيرة فى جانب المسلمين، وكان رأيهم هذا مبنيا على خبرات سابقة؛ ولكن شوق الشباب إلى الجهاد فى سبيل الله، ابتغاء مرضاته، وسعيا إلى الفوز بالجنة، جعلهم يلحون على الرسول ﷺ أن يخرج بهم لملاقاة الأعداء حيث هم خارج المدينة. والمعروف كذلك من كتب السيرة أن الرسول ﷺ استجاب لرغبة الشباب وخرج بالجيش لملاقاة الأعداء خارج المدينة، وكان النصر حليف المسلمين فى بدء المعركة، ولكن حين وقعت المخالفة من الفريق المكلف بحماية ظهر المسلمين من فوق جبل الرماة، خوفا على نصيبهم من الغنائم، وظنا منهم أن المعركة قد انتهت لصالحهم، فنزلوا من فوق الجبل مخالفين بذلك أمر رسول الله ﷺ الذى أمرهم ألا يغادروا أماكنهم ولو رأوا جند المسلمين تتخطفهم الطير، حدث ما هو معلوم من التاريخ، أن خالد بن الوليد - القائد المحنك - وكان بعد لم يسلم، انتهز الفرصة واستدار حول جبل أحد، وكر على المسلمين كرة شديدة وهم بغير حماية من ضاربى النبل الذين شغلتهم الغنائم، والذين ظنوا أنهم فى حل من مغادرة أماكنهم لانتهاء المعركة فى ظنهم، فأصاب المسلمين ما أصابهم من الهزيمة، واستشهاد سبعين من الصحابة رضوان الله عليهم، من بينهم سيد الشهداء حمزة رضى الله عنه وكسر رباعية الرسول ﷺ، مما هو مشهور معروف فى كتب التاريخ.

المهم فى صدد ما نحن فيه من الحديث أن النهاية الأليمة التى انتهت إليها المعركة كان يمكن أن تهز مبدأ الشورى ومكانتها فى أعماق النظام الإسلامى. وكان يمكن أن يخطر فى النفوس أن استجابة الرسول ﷺ لإلحاح الشباب هو الذى نتج عنه ما نتج من التعرض للهزيمة، وأن لو كان الرسول ﷺ بقى بالجيش فى المدينة كما كان رأى شيوخ المسلمين ذوى التجربة - وهم قلة بالنسبة للشباب المتحمس - لكانت السلامة وما كانت الهزيمة لتقع، وما كان المسلمون ليفقدوا من فقدوا من الأحباب..

ولكن انظر إلى ما نزل من الوحى بعد المعركة: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ ..!

ما أعظم الدلالة! وما أبلغ مجيء ذكرها فى هذا الموضع بالذات!

إنها تدل دلالة واضحة على عمق مبدإ الشورى فى النظام الإسلامى، بصرف النظر عما قد تؤدى إليه - أحيانا - من نتائج قد تحتاج إلى تصحيح.

إن سورة آل عمران - فى تناولها لمعركة أحد - لتعطى دروسا كثيرة عميقة، لا يتسع المجال هنا للحديث عنها[1]. ولكن من أظهرها هذا الدرس الذى نحن بصدده، المتعلق بأمر الشورى، وعمق جذورها فى النظام الإسلامى.

فإذا انتقلنا من كتاب الله إلى سنة رسوله ﷺ، نجد ذات الدلالة، واضحة فى النهج التربوى الذى ربى به رسول الله ﷺ صحابته.

هل كان الرسول ﷺ فى حاجة إلى المشورة وهو الذى يتنزل عليه الوحى، إما موجِّها لما ينبغى للرسول ﷺ أن يعمله، وإما مصححا لتصرف الرسول ﷺ إذا وقع التصرف محتاجا إلى تعديل كما حدث فى أمر الأعمى الذى أعرض عنه الرسول ﷺ طمعا فى هداية رجل من صناديد الكفار، وكما حدث فى شأن الأسرى الذين أسرهم الجيش الإسلامى، أو فى شأن الاستغفار لبعض المشركين.

١ - ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ (عبس: ١ - ١٠).

٢ - ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٧).

---

(١) اقرأ عنها فى كتب التفسير، وفى ظلال القرآن حديث مستفيض عنها.

٣ ـ ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ (التوبة: ١١٣).

لم يكن الرسول ﷺ والحال هذه محتاجا إلى المشاورة!

وتقول كتب السيرة إن الرسول ﷺ **كان يكثر من مشاورة أصحابه!**

فما دلالة ذلك؟!

دلالته الواضحة هى عمق جذور مبدإ الشورى فى النظام الإسلامى!

وأمر آخر ـ يتعلق بأمور التربية ـ نركز عليه فى هذا المجال.

إن الشورى هى الأداة المثلى فى يد القائد لكى يعد الأفراد الذين يصلحون للقيادة ليكونوا قادة من بعده.. فحين يجتمع القائد بأتباعه وأنصاره فيشاورهم، تتبين معادن الناس. يتبين من هو صاحب الفكر الثاقب والنظرة الفاحصة، فيتولاه القائد برعاية خاصة ليعده للقيادة من بعده، ويتعود الجميع فى الوقت نفسه ألا يكونوا مجرد منفذين لما يملى عليهم، بل مشاركين فى صنع القرار. وحين يشعرون بأن القرار هو قرارهم الذى شاركوا فى إعداده، يكون تنفيذهم له مختلفا بالضرورة عن تنفيذهم لأمر لم يشاركوا فى إعداده ولا ناقشوا تفصيلاته، كما يتعود الجميع أن يكونوا إيجابيين تجاه ما يجرى حولهم، ويتعودون أن يكون لهم «موقف» تجاه الأحداث، ولا يكونوا إمعات إن أحسن الناس أحسنوا وإن أساءوا أساءوا معهم.

وهذا كله كان من أهداف الرسول ﷺ فى تربية أصحابه رضوان الله عليهم.

لقد كان يعلم عليه الصلاة والسلام أن المنهج الربانى الذى أرسى قواعده فى حاجة إلى من يتعهده من بعده. لذلك حرص عليه الصلاة والسلام على تربية «الصف الثانى» الذى يخلفه من بعده، ويتعهد الغرس الذى غرسه بيديه الكريمتين، وظل يرعاه حتى أينع وأثمر، وكانت أداته فى إعداد هذا «الصف الثانى» هى المشاورة التى كان يكثر منها كما تقول كتب السيرة، وكانت نعم الأداة، وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم هم الثمرة المباركة للمنهج النبوى العظيم، الذى أنتج أعظم عظماء التاريخ.

وكان عليه الصلاة والسلام يعلم أن القادة الذين رباهم ليخلفوه، وليكونوا امتدادا لمنهجه من بعده، فى حاجة إلى أعوان، يؤدون ما يعهد إليهم أداؤه على أنه أمرهم هم، لا على أنه أمر يخص غيرهم وهم مجرد منفذين له، فيؤدونه بإخلاص وأمانة وشعور عميق بالمسئولية، وكانت أداته - ﷺ - فى إعداد هؤلاء الأعوان - إلى جانب تعميق الإيمان بالله واليوم الآخر فى قلوبهم - هى المشاورة التى كان يكثر منها مع أصحابه كما مر بيانه.

وكان عليه الصلاة والسلام يعلم أن هذا المنهج الربانى المبارك يحتاج - إلى جانب القادة والأعوان - إلى «أمة» تتابع التنفيذ بوعى لكى لا ينحرف التنفيذ عن المنهج، أمة يقظة، تعرف أن من واجبها أن تراقب، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأنها مسئولة عن هذا الأمر أمام الله. وكانت أداته - ﷺ - فى تربية هذه «الأمة» - إلى جانب تعميق الإيمان بالله واليوم الآخر، وبيان الحلال والحرام والمباح والمستحب والمكروه - هى المشاورة التى كان يكثر منها عليه الصلاة والسلام، لأن المستشار يشعر بأن من واجبه أن يشحذ طاقته ليقدم المشورة الصائبة، ويتعود فى الوقت ذاته أن يشعر بالمسئولية، وأن يكون إيجابيا تجاهها.

* * *

لظروف تاريخية لا نتعرض لبحثها هنا، لم يأخذ هذا الجانب من المنهج الربانى والمنهج النبوى مكانه الذى كان ينبغى أن يأخذه خلال التاريخ. وضيق مجال الشورى فى حياة الأمة إلى أضيق نطاق، وحل محله فى كثير من الأحيان استبداد سياسى من جانب الحاكم، وإعراض عن التطبيق من جانب الأمة التى خاطبها الرسول الكريم بقوله: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن أن يبعث الله عليكم عقابا ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» (رواه الترمذى). وإن كانت الصورة ليست سوداء قاتمة كما يصورها أعداء الإسلام الذين يبثون فى الأذهان أن الإسلام لم يعش فى واقع الأرض أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة، ليصدوا الناس عن محاولة إحيائه مرة أخرى، بعد أن ظنوا أنهم استراحوا منه إلى الأبد، وأنه اندثر بغير رجعة! فقد ظلت الأمة تمارس إسلامها فى كثير من جوانبه قرونا متطاولة على رغم فساد الحكام، لأنه ليس مجرد نظام سياسى يعتمد على سياسة الحاكم، وإنما هو عقيدة فى

قرارة القلب، وعقد مع اللّه، كل فرد بمفرده مسئول عنه أمام اللّه. والإسلام - الذى يزعم أعداؤه وتلاميذهم من العلمانيين أنه انتهى بعد ثلاثين أو أربعين سنة - لم يكن (لو صحّ زعمهم) لينشئ الحضارة التى أنشأها وعاشت عدة قرون، واستمدت أوربا نهضتها الحديثة منها، ولم يكن لينشئ الحركة العلمية الباهرة التى غيرت مجرى البحث العلمى واستبدلت بالفلسفة النظرية منهج البحث التجريبى الذى تقوم عليه كل الحركة العلمية الحاضرة، ولم يكن ليسجل ما سجله التاريخ من قيام أول تعليم مجانى فى الأرض، وأول تطبيب مجانى فى الأرض، وإقامة مجتمع نظيف من الفاحشة عدة قرون!

ما علينا مما يقول الأعداء!

نعود إلى موضوع الشورى. .

لئن كان هذا المبدأ العميق الجذور فى المنهج الإسلامى قد أهمل إلى حد كبير فى التطبيق الواقعى، فهذا لا ينفى وجوده فى المنهج الربانى، ولا ينفى عمق جذوره كذلك فى هذا المنهج، لأن الدين الربانى المنزل من عند اللّه حجة على الأمة كما أسلفنا، وليست الأمة حجة عليه. فلئن أهملته الأمة قرونا متطاولة فهى مسئولة عن إهماله أمام اللّه، لا يعفيها من مسئوليتها ما قد تتذرع به من معاذير، فاللّه سبحانه يقول: ﴿ **بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ** ﴾ (القيامة: ١٤، ١٥).

ومهما يكن الأمر فإننا اليوم أمام صحوة تمتد جذورها فى الأرض، ونرجو من ورائها الكثير. والصحوة عمادها الحركات الإسلامية المنتشرة فى أرجاء العالم الإسلامى، تحاول إيقاظ الأمة، وردها إلى حقيقة الإسلام، فما موقف الحركة الإسلامية من هذا الأمر: أمر الشورى؟

الذى يبدو للناظر حتى الآن أنها تعتمد على مبدإ السمع والطاعة فى تنظيماتها أكثر بكثير مما تعتمد على الشورى، وتجعل نطاق الشورى محدودا فى أضيق الحدود، بذريعة أنها فى صراع حاد مع أعدائها، يستلزم أكبر قدر من السمع والطاعة من جانب الأتباع.

ولا أظن أن هذه الذريعة مسوِّغة! فلن تكون أى حرب الآن - وهى قائمة بالفعل، وقائمة على أشدها - أقسى من الحرب التى ووجهت بها الدعوة أول مرة على عهد رسول الله ﷺ، ولكنه على الرغم من كل الظروف التى أحاطت به كان حريصًا على تأصيل منهج الشورى، لأنه كان يعلم المردود الضخم الذى يجنيه الإسلام من ورائه . .

ثـم . .

تأتى ضغوط خارجية تريد - فى زعمها - أن تفرض «الديمقراطية» على البلاد والعباد!

ومجاراة للضغوط تعلن بعض الجماعات الإسلامية أنها ديمقراطية تعددية . . إلخ .

وسنتكلم عن هذه النقطة فى فصل قادم . ولكنا نقول هنا إننا لا نقصد بالحديث عن الشورى أن تكون أسلوبا للعمل فى المجال السياسى العام، إنما نقصد أن تكون منهجا تربويا داخل الجماعات الإسلامية نفسها، لتكون نواة لإعادة تطبيق هذا المنهج الربانى فى واقع الأمة الإسلامية، التى هجرته لظروف تاريخية، وآن لها الأوان أن تعود إليه .

ثم نقول فى عجالة - نفصلها فى فصل قادم - إن «الديمقراطية» التى يدعو إليها دعادتها ليست هى الشورى الإسلامية التى أنزلها الله فى منهجه المنزل، لأنها ترفض رفضا مبدئيًا التحاكم إلى شريعة الله، بينما تعمل الشورى الإسلامية فى ظل شريعة الله، ملتزمة بها، لا تخرج عن إطارها، إيمانًا من أصحابها بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ (الأحزاب: ٣٦)، وإيمانا منهم بأن كل إيجابيات الديمقراطية التى يدعو الداعون إليها موجودة فى الإسلام، بينما برئ دين الله من سلبيات هذه الديمقراطية التى يتحدث عنها أصحابها أنفسهم .

ولهذا ندعو دائمًا إلى الإسلام، ولا ندعو إلى الديمقراطية!

٣ ـ أخـــــلاقيات

الأخلاق ركيزة أساسية من ركائز هذا الدين . ويستلفت النظر كثرة الإشارة إلى معان خلقية فى السور المكية ، التى من الواضح أنها نزلت لترسيخ عقيدة لا إله إلا الله ، مما يوحى لمن يتدبرها بأن الأخلاق مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعقيدة لا تنفك عنها .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (الماعون : ١ ـ ٣) .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ (الليل : ٥ ـ ١١) .

﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (الفجر : ١٧ ـ ٢٠) .

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ (المدثر : ٤٢ ـ ٤٧) .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ

عَملاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٣ ـ ٧٢).

﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ (الإسراء: ٣٤ ـ ٣٧).

والأمثلة أكثر من أن تحصى.

كما يستلفت النظر كذلك شمول التوجيهات الأخلاقية فى الكتاب المنزل ـ وفى السنَّة المطهرة كذلك ـ لكل تصرفات الإنسان، بحيث لا يوجد تصرف واحد فى ميزان هذا الدين ـ سياسيا كان أو اقتصاديا أو اجتماعيا أو فكريا أو فنيا ـ منفصلا عن قاعدته الأخلاقية، أو مقبولا عند اللّه بغير هذا الرباط الوثيق مع الأخلاق.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء: ٥٨).

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (النساء: ٣٦، ٣٧).

«ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذى على الناس راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» (متفق عليه).

ويستلفت النظر أخيراً أن الأخلاق ميثاق مع اللّه ابتداء، تندرج تحته كل الروابط والمواثيق:

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (المائدة: ٧).

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ (الرعد: ١٩ ـ ٢١).

وربما كانت هذه الآية من سورة لقمان قاطعة الدلالة فى هذا الشأن، فهى تتحدث عن وصية اللّه للإنسان بوالديه. . ولكن انظر كيف جاءت الوصية.

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (لقمان: ١٤).

فالشكر الأول الواجب هو الشكر للّه، ويندرج تحته وينبثق عنه الشكر للوالدين، بينما عنوان الوصية هو ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾، أى أن شكر الوالدين يتم من خلال الشكر للّه، ومن خلال الرباط الأول، الذى يربط قلب الإنسان باللّه. وبهذا تكون الأخلاق فى الإسلام مرتبطة بالعقيدة أولا، وملتزمة بأوامر اللّه ونواهيه، وليس ميزانها التقدير البشرى، وليس ميزانها المصلحة الشخصية كما يقدرها الإنسان لذاته.

وفى ضوء هذه الحقيقة نتحدث عن بعض الأخلاقيات التى تحتاج إلى مزيد من العناية فى مجال العمل الإسلامى.

(أ) التعامل المالى

ذهب رجل إلى سيدنا عمر رضى اللّه عنه يطلب منه شيئًا، فقال له: ائتنى بمن يعرفك، فمضى الرجل وجاء بشاهد يزكيه، فقال له عمر رضى اللّه عنه: هل

سافرت معه؟ قال: لا! قال: هل تعاملت معه بالدرهم والدينار؟ قال: لا! قال: أظنك رأيته فى المسجد يرفع هامته ويخفضها! ثم التفت إلى الرجل صاحب الحاجة فقال له: اذهب فأتنى بمن يعرفك!!

للّه در عمر!.. كان خبيرا بالنفوس، خبيرا بالرجال.

فكون الرجل فى المسجد يرفع هامته ويخفضها لا يعطى - وحده - شهادة تعريف موثوقًا بها! إنما لابد - للكشف عن المعدن الحقيقى للإنسان - من معرفة طريقة تعامله فى شتى المواقف.

وقد أشار عمر رضى اللّه عنه إلى مجالين من مجالات التعامل يتبين فيهما المعدن الحقيقى للإنسان، وهما السفر والتعامل المالى.

وحديثنا هنا هو عن التعامل المالى.

إن كثيرا من الناس تراه يرفع هامته ويخفضها فى المسجد، فإذا كان بينك وبينه تعامل مالى، انكشفت لك صورة مغايرة للصورة التى تأخذها لأول وهلة حين تراه ساجدا وقائما، لذلك يقول رب العالمين: ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ (الزمر: ٩).

ودخائل النفوس يعلمها اللّه. ولكنها - بالنسبة للعلم البشرى - لا تتبين على حقيقتها إلا من خلال تعامل الإنسان مع غيره فى شتى المجالات.

وواقع الأمر أن كثيرا من الناس يشكون من التعامل المالى لبعض العاملين فى مجال الدعوة، وأنهم يأخذون بسهولة ولكنهم لا يردون بسهولة، بل يتلكئون فى أداء ما عليهم، ويسلكون سبلا غير مستقيمة للحصول على المال، أو الاستكثار منه.

وتلك تعد منقصة فى حق أى إنسان عادى، ولكنها فى حق من يعمل فى مجال الدعوة أشد.

يقول رب العالمين: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف: ٢، ٣).

والمقت هو الغضب الشديد، فكيف حين يكبر المقت؟!

والسبب فى شدة مقت الله لهذا الأمر أنه يصد عن سبيل الله. فحين يسمع الناس كلاما جميلا عن الإسلام والفضائل التى ينشئها الإسلام فى نفوس معتنقيه، ثم يرون الذى يدعوهم إلى هذه الفضائل لا يمارسها فى تعامله فى واقع حياته، بل يمارس ما يخالفها، فإن هذا يكون صدا عن سبيل الله، لا يقف شره عند الشخص ذاته الذى يصنع هذا الصنيع، بل يتعداه إلى الآخرين.

يقول رب العالمين عن الذين يرتكبون مثل هذه المخالفات: ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (النحل: ٩٤).

وفيما يتعلق بموضوعنا فى هذه الصفحات فهذه ثغرة لا تسدها إلا التربية، ويجب أن تكون مدرجة فى جدول الذين يقومون بإعداد الدعاة، لتلافيها فيمن توجد فيه، ولا يجوز النظر إليها على أنها أمر هامشى يخص صاحبه وحده، وعليه هو وحده أن يتحمل تبعته، فقد رأينا أن الدعوة كلها تتأثر بمثل هذا السلوك، خصوصا أنّ هناك شانئين يتربصون بالدعوة، ويفرحون بوجود مثل هذه النماذج ليشنعوا بها على الدعوة والدعاة.

(ب) تعاملات أخرى

إذا كنا أفردنا بندًا خاصا للتعامل المالى، فلأهميته فى علاقات الناس بعضهم ببعض. ولكنه ليس المجال الوحيد الذى تعمل الأخلاق فيه، ولا المجال الوحيد الذى يشكو الشاكون فيه من تصرفات بعض القائمين بالدعوة..

إن الدعوة ـ كما ينبغى أن نعلم جيدًا ـ هى قدوة وتربية فى المقام الأول، ثم موعظة حسنة بعد ذلك. ومما يؤسف له أن كثيرا ممن يعملون فى حقل الدعوة يعتمدون على الموعظة فى المقام الأول، ويهمشون القدوة والتربية، أو يغفلونها تماما من الحساب!

الموعظة ضرورية ولا غناء عنها، ويكفى أن تكون مذكورة بالذات فى كتاب الله فى مجال الدعوة: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥).

فهى وسيلة «البيان» التى تبين للناس ما يجب عليهم أن يتبينوه من أمور هذا الدين، ليقوموا بأدائه على بصيرة.

ولكنها - وحدها - لا تنتج شيئا له وزن فى عالم الواقع، فضلا عن كون الإكثار منها كثيرا ما يأتى بأثر عكسى!

هناك أدوية يكتب عليها هذه النصيحة: لا تتجاوز المقدار! لأن تجاوز المقدار يسبب أضرارًا تذهب بفائدة الدواء!

والموعظة هى من هذه الأدوية التى لابد منها لعلاج كثير من الأمراض، ولكن تجاوز المقدار فيها يذهب بفائدتها، ويولد السآمة بدلا من التأثير المطلوب!

يقول الصحابة رضوان الله عليهم: كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة (أى بين الحين والحين) مخافة السآمة!

فإذا كان هذا شأن رسول الله ﷺ مع صحابته الكرام رضوان الله عليهم، الذين كانوا يتلقفون كل كلمة ينطق بها الرسول الكريم ﷺ على أنها طريقهم إلى الجنة ورضوان الله، فكيف بنا نحن البشر العاديين إذا جعلنا جهدنا كله فى الدعوة خطبا ومواعظ؟!

على أن الذى نتحدث عنه هنا ليس هو مجرد الإكثار من الوعظ حتى يسأم الناس، بل نتحدث عن أمر آخر أسوأ أثرا فى مجال الدعوة: أن نهمل القدوة التى هى الركيزة الأولى للدعوة، وأن نكون - بأشخاصنا، وبسلوكنا، وبتصرفاتنا، وبتعاملاتنا - نموذجا سيئا ينفر الناس!

ضربنا مثلا فى الفقرة السابقة بالتعامل المالى. ونذكر هنا مجالات أخرى:

يشكو عدد من الزوجات أن أزواجهن - من العاملين فى حقل الدعوة - يسيئون

معاشرتهن، ولا يراقبون الله فيهن، بينما يخرجون على الناس بكلام جميل عن حسن معاملة الإسلام للمرأة، وتوفيته حقوقها، ورعايته إنسانيتها!

ما أدرى! قد تكون هناك أسباب خاصة فى كل حالة! ولكن الدلالة واضحة! إن هذا الذى يسىء إلى أهله وهو يعمل فى حقل الدعوة، لم يستوعب حقيقة الإسلام، ولم يستوعب قول رسول الله ﷺ : خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى (رواه الترمذى بإسناد صحيح).

وهو فوق ذلك غير مؤهل للعمل الذى يقوم به، ولو كان ذرب اللسان، ذا موعظة مؤثرة فى الناس! فقد نستطيع أن نخفى عيوبنا عن الناس زمنا، ولكنهم فى النهاية لابد أن يكتشفوا حقيقتنا كما قال الشاعر القديم:

ومهما يكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَمِ[1]

وعندما يكتشف الناس أننا فى دخيلة نفوسنا غير الصورة التى نبدو بها أمامهم، وأننا نمارس فى حياتنا الخاصة غير ما ندعو إليه، يقع ما حذر الله منه، وهو الصد عن سبيل الله.

❊ ❊ ❊

يلاحظ بعض الناس أن أبناء الدعاة - وبناته بصفة خاصة - كثيرا ما تكون صورتهم على غير ما ينبغى أن تكون، من الالتزام والانضباط، وإبراز النموذج الصحيح للإسلام! ويعتذر بعض الدعاة عن هذه الحالة بأنهم مشغولون بالدعوة فى الخارج - خارج الأسرة - فلا يجدون الوقت الكافى للعناية بشئون أبنائهم وبناتهم، فيجرفهم المجتمع بما فيه من تيارات منفلتة من الضوابط. وهذا كلام يفسر ولا يسوِّغ!

إن هناك أمرا ربانيا بهذا الشأن واجب الاتباع: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ (التحريم: ٦).

---

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى.

وكون الداعية ينفق وقته وجهده فى محاولة هداية الناس إلى الحق أمر مشكور ولا شك، ولكن هذا لا يعفيه من ترك أبنائه وبناته يخالفون عن أمر اللّه دون أن يوجه قدرا من جهده لضبط سلوكهم.

ولا بد لنا من أن نعترف بأن الأمر ليس سهلا. فالتيارات العالمية التى تنشر الفساد فى الأرض قوية التأثير على الشباب، وهى تستهدفهم بصفة خاصة لتفسدهم، تحقيقا لمآرب الشياطين الذين يعلنون فى تلمودهم أن هدفهم هو استحمار الأمميين وتسخيرهم لشعب الشيطان، الذى يسمى نفسه «شعب اللّه المختار»! ولا نزعم أن جهد التربية الذى يبذله الداعية فى تقويم أبنائه ذكورا وإناثا سيؤتى ثماره دائما على الصورة المرجوة، فقد لا يفلح فيهم الجهد الذى يبذل فى تربيتهم، ولكن يكون آباؤهم قد أعذروا إلى اللّه. إنما الذى ننكره أن يصرف الداعية جهده كله خارج الأسرة ويهمل أبناءه، فعندئذ لا يكون مقبول العذر عند اللّه.

❊ ❊ ❊

العبرة من هذا الحديث كله أن القدوة ذات أهمية بالغة فى قضية الدعوة. وأنه يجب أن نصحح مفهومنا عن الدعوة إذا كنا نظن أن الكتب والخطب والدروس والمواعظ تستطيع ـ وحدها ـ أن تغير حال الأمة.

إن أحد أسباب الانحدار الذى وصلت إليه الأمة ـ وهى كثيرة متشابكة ـ أنها افتقدت القدوة الصالحة فى قادتها وكبرائها، فى الوقت الذى ملأت القدوة السيئة أرجاء الساحة. وإننا من أجل ذلك مكلفون تكليفا ـ إن كنا نريد أن ننتشل الأمة من الوهدة التى سقطت فيها، حتى صارت غثاء كغثاء السيل كما وصفها الرسول الملهم ﷺ قبل أربعة عشر قرنا ـ أن نكثر من إبراز القدوة الصالحة أمام الأمة، لنعينها على نفسها، ونستحثها على النهوض من كبوتها. وإذا كنا ـ فى كثير من الأحيان ـ لا نملك القدوة الصالحة فيمن بيدهم مقاليد الأمور، فلنحاول نحن أن نجعل من أنفسنا قدوة فى المحيط الذى نعمل فيه، وهو محيط الدعوة، لكى نبدأ المشوار الطويل الذى يجب على الأمة أن تقطعه لتعود إلى التمكين الذى وعدها اللّه به حين تستقيم على الطريق: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ**

﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (النور: ٥٥).

ولنتدبر فى هذا المجال توجيه الله لبنى إسرائيل وهم ـ فى مصر ـ مضطهدون مستضعفون تُذَبَّحُ أبناؤهم وتُسْتَحْيَىٰ نساؤهم: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٨٧).

أى كونوا نموذجا حيا لما يجب أن يكون عليه المؤمنون الصادقون.. وعندئذ انتظروا فرج الله ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

والمسلمون اليوم مستضعفون مضطهدون فى كثير من بقاع الأرض، والبشرى قائمة أمامهم:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف: ٩).

ولكن عليهم أن يفوا بالشرط الذى اشترطه الله، والله منجز وعده حين يفى العباد بالشرط: ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٦).

مجالات تحتاج إلى الالتفات إليها

١ ـ الوعى السياسى والوعى الحركى

أقف كثيرا عند كل آية فى كتاب اللّه تقدم فيها ذكر أى أمر من الأمور على الإيمان باللّه. فالإيمان باللّه هو الركيزة الكبرى التى تنبثق منها الركائز كلها، ولا شىء يتقدم عليها فى عقيدة التوحيد، التى هى أساس الإيمان. فإذا تقدم ذكر أمر من الأمور فى آية من آيات القرآن على الإيمان باللّه، فذلك له دلالة خاصة يجب الوقوف عندها، لتدبرها، والاعتبار بما تضمنته من معان.

خذ على سبيل المثال قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦). فهنا تقدم ذكر الكفر بالطاغوت على ذكر الإيمان باللّه.

وخذ على سبيل المثال قوله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠). فهنا تقدم ذكر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على ذكر الإيمان باللّه.

وخذ كذلك هذا المثال من سورة يوسف: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨). فهنا تقدم ذكر البصيرة فى الدعوة على ذكر العقيدة المتضمن فى قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

في كل مرة هناك دلالة خاصة . .

الدلالة فى الآية الأولى أن الإيمان لا يتحقق فى قلب الإنسان ما لم يكفر كفراً واضحاً بيناً بالطاغوت، ويتخلص من كل آثاره فى مشاعره وفى سلوكه وفى فكره وفى كل ما يصدر عنه بإرادةٍ ووعيٍ، ليكون الدّين فى قلبه خالصاً للّه: ﴿ **أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ (الزمر: ٣)، وإلاّ فهو من الذين قال اللّه عنهم: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ (يوسف: ١٠٦) وهؤلاء أخرجهم اللّه من عداد المؤمنين (ولا نتحدث هنا عن حالات الإكراه فهى مستثناة بقوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** ﴾ (النحل: ١٠٦).

والدلالة فى الآية الثانية أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أداة لازمة لتمكين دين اللّه فى الأرض، لا يتم التمكين من دونها فى واقع الحياة. فالنفوس من طبائعها أن تتفلت وأن تنسى وتحتاج دائمًا إلى التذكير، كما تحتاج إلى من يشعرها بجدية الأمر، وأنها ليست متروكة لأهوائها، تطيع حين تشاء، وتعصى حين تشاء، إنما هناك من يأخذ على أيدى الناس، ويلزمهم بأداء ما قصروا فى أدائه. وهذه الأداة لها وزن كبير فى كتاب اللّه، حتى إن خيرية هذه الأمة قامت عليها، كما لعنت أمة سابقة بسبب تهاونها فى هذا الأمر بالذات: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ (المائدة: ٧٨، ٧٩).

والدلالة فى الآية الثالثة أن البصيرة لازمة فى الدعوة إلى اللّه لزوماً أصلياً لا غنى عنه، وأنه لا يكفى فى الدعوة أن يكون الناس مؤمنين، فإيمان بلا بصيرة قد يضر الدعوة ولا ينفعها.

وهذا موضع حديثنا فى هذه الفقرة من هذا الفصل.

البصيرة

* * *

فى أكثر من مناسبة بدا واضحاً أن كثيراً من العاملين فى حقل الدعوة لا يملكون البصيرة السياسية والحركية التى يواجهون بها الأحداث، وأنهم بفقدانهم للوعى السياسى والوعى الحركى لا يخدمون الدعوة، بل يسيئون إليها.

فى عـام ١٩٩٠ هـاجم صـدام حـسين الكويت، وناصـرته كـثيـر من الحـركـات الإسلامية على أساس أنه واقف ضد أمريكا. وأن أمريكا تحاربه، فيجب أن نسانده ونقف فى صفه!

وكانت هذه غفلة ما بعدها غفلة!

فى سنة ١٩٨٢ نشر كتاب بالإنجليزية من تأليف ضابط أمريكى متقاعد، كانت ترجمته بالعربية بعنوان «قوة الانتشار السريع». وصدرت الترجمة فى القاهرة عام ١٩٨٣.

يقـول المؤلف الأمـريكى فى هذا الكتاب إن بتـرول الشـرق الأوسط[١] معـرض لأحد خطرين، إما خطر شيوعى (وكانت روسيا فى ذلك الوقت ما تزال دولة ذات سطوة وسلطان) وإما خطر «أصولى»، وإن واجب أمريكا أن تكون موجودة بالمنطقة لتحمى البترول من هذا الخطر وذاك، ليكون خالصاً لخدمة مصالحها. ولكن المشكلة التى تواجه أمريكا أنها لا تستطيع أن تبرر وجودها فى المنطقة فى حالة السلم، لا لأن حكام المنطقة يرفضون ذلك، ولكن لأنهم لا يستطيعون أمام شعوبهم أن يبرروا وجودَ قوات أمريكية فى بلادهم.

ثم قال: والمشكلة التى نبحث لها عن حل هى إيجاد المبرر الذى يبرر وجودنا فى المنطقة!

وكان المسوِّغ هو مهاجمة صدام للكويت. . فجاءت القوات الأمريكية لتنقذ الكويت من العدوان! ويذكر الناس ـ أو ينبغى أن يذكروا ـ أن السفيرة الأمريكية فى العراق هى التى أعطت الضوء الأخضر لصدام لدخول الكويت، وقالت له: إذا دخلت الكويت فليس لدى أمريكا اعتراض!

كما يذكرون ـ أو يجب أن يذكروا ـ أن هذه السفيرة اختفت بعد الأحداث، ولم يعد ذكرها يرد على لسان أحد!

---

(١) كلمة «الشرق الأوسط» كما أوضحت فى أكثر من كتاب تعبير مبتدع لتسويغ وجود إسرائيل فى المنطقة. فلو وصفت المنطقة بأنها إسلامية، أو حتى عربية، فلا مكان لإسرائيل فيها، ولكن حين تصبح منطقة جغرافية، لا لون لها ولا صفة، فيمكن لمن هب ودب أن يكون موجودا فيها بلا اعتراض!

ما دلالة الأحـداث؟!

دلالتها واضحة! أن «صدام» أعطى أمريكا المسوِّغ الذى كانت تبحث عنه لتسوِّغ وجود قواتها فى منطقة «الشرق الأوسط» . . منطقة البترول!

ولن أناقش هنا ما قاله بعض المدافعين عن موقف صدام من أنه هو نفسه كان ضحية للخديعة الأمريكية، وأنه استدرج لغزو الكويت، فهذا لا يقدم فى الأمر ولا يؤخر. فالعميل المستغفل يؤدى فى الحياة الدنيا ذات الخدمة التى يؤديها العميل المأجور للأعداء، وإنما يفترق الجزاء فى الآخرة حين يقف الناس بين يدى رب العالمين فيحاسبهم حسب نياتهم. أما هنا فى الحياة الدنيا فلا يشفع للعميل المستغفل أنه لم يكن يدرك ما يراد به - إن كان فعلا لم يدرك - فالمؤمن كيّس فطن كما جاء فى الأثر، ومن تولى أمور الناس مسئول عما يصيبهم على يديه.

إنما الذى أناقشه هو موقف الجماعات الإسلامية التى ساندت «صدام» على أساس أنه يقف فى وجه أمريكا، وأن أمريكا تحاربه!

أىّ غفلة؟! وأى انعدام للوعى السياسى، بينما كتاب المؤلف الأمريكى منشور بالإنجليزية منذ عام ١٩٨٢ وترجمته العربية منشورة فى قلب العالم العربى منذ عام ١٩٨٣؟! والذى نفذ بالفعل كان هو الذى اقترحه الكاتب الأمريكى بكل تفصيلاته، حتى عدد الجنود، حتى أسماء فرقهم، حتى نوع ناقلاتهم!!

فى بريطانيا كانت جماعة من الإنجليز المسلمين، أسلم أفرادها عام ١٩٧٥م[(١)]، أصدرت بيانا بمناسبة أحداث الغزو العراقى للكويت قالت فيه: نحن لا نوافق على الوجود الأمريكى فى الشرق الأوسط، ولكنك أنت يا صدام لست مسلماً، لأنك لا تطبق الشريعة الإسلامية فى بلادك!

ياللّـه!

الذين أسلموا بالأمس القريب لديهم هذا الوعى، والذين يعملون فى حقل الدعوة منذ أكثر من نصف قرن ينساقون بلا بصيرة، وتخدعهم الأحداث؟!

---

(١) التقينا معهم فى لندن عام ١٩٧٦م ولم يكن عددهم يزيد على خمسة وعشرين شخصا، وهم اليوم مئات وربما ألوف.

إن التردد بين البديلين الموجودين فى أرض الواقع - على فرض أنهما بديلان فعلا، وليس أحدهما ظلا للآخر يعمل لحسابه - ليس هو السلوك المرجو ممن يقوم بمهمة إيقاظ الأمة من سباتها، وبعثها لتستعيد دورها الذى فقدته بتقصيرها وتقاعسها.

لقد عبر الفريق البريطانى المسلم تعبيرا جميلا دقيقا عن الموقف: لا نرضى عن الوجود الأمريكى فى المنطقة، ولا نرضى بصدام قائدا لأمة مسلمة، لأنه لا يمارس الإسلام.

لم يترددوا بين البديلين القائمين ليختاروا أحدهما. لم يقولوا كما قال غيرهم: إذا وقفت ضد صدام فأنت إذًا مع أمريكا، وأمريكا عدو لنا فيجب أن نقف مع صدام! (ونحن نرجو للرجل أن يكون الله قد أحسن خاتمته وعفا عن ماضيه، ولكن هذا لا يعفى المخطئين من خطئهم. حين أيدوه فى موقف لا يخدم الإسلام).

كلا أيها الأحبة!

لا هذا ولا ذاك!

إنما هو البديل الثالث! إنما هو الإسلام، والموقف الذى يقتضيه الإسلام!

حقيقة إن البديل الثالث - أى الحل الإسلامى - ليس موجودا على أرض الواقع الآن، لأن الأمة - فى حالة الغثاء التى وصفها الرسول ﷺ قبل أربعة عشر قرنا - لا تملك أمر نفسها، وهى كما قال الشاعر العربى القديم الذى كان يهجو قبيلة تيم:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود!

نعم! ولكن مهمة الحركة الإسلامية ليست الرضا بحالة الغثاء القائمة، وإنما الدعوة إلى البديل الصحيح.. إلى الإسلام!

وقد يقول قائل - محبط بفعل الأحداث - وما جدوى المناداة بالبديل الثالث الذى لا وجود له فى أرض الواقع، إذا كانت هذه المناداة لا تغير شيئا فى الأمر الواقع؟!

ونقول لهذا المحبط المستسلم «للأمر الواقع» ما قاله الرسول ﷺ قبل أربعة عشر قرنا وهو يربى هذه الأمة ويعدها للمهمة الجليلة التى أخرجها اللّه من أجلها: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، **فمن لم يستطع فبقلبه**، وذلك أضعف الإيمان» (متفق عليه).

إذا لم تستطع فى وقتك الراهن أن تغير المنكر بيدك ولا بلسانك، فأقل القليل ألا تنصر الباطل بيدك أو بلسانك، وذلك أضعف الإيمان!

* * *

واليوم يقع العمل الإسلامى - إلا ما رحم ربك - فى أزمة جديدة منشؤها انعدام الوعى السياسى والوعى الحركى، الذى تعانى منه الحركة الإسلامية معاناة حادة!

اليوم ينقسم العمل الإسلامى - إلا ما رحم ربك - إلى تيارين متباعدين، كلاهما لا يخدم الدعوة! تيار يحمل البندقية، يطلقها كيفما اتفق، وتيار ينادى: نحن ديمقراطيون تعدديون!

كلاهما لا يخدم الدعوة!

لو اقتصر الفريق الأول على مقاتلة العدو الغازى أو العدو المحتل، فى عسكره وعتاده، فهو فى مكانه الصحيح، بل هو فوق ذلك يقوم عن الأمة كلها بما كان يجب أن تجند نفسها له، ويحمل عنها عار التخاذل والاستسلام والخنوع لمن يقتّل نساءها وأطفالها، ويهدّم بيوتها وممتلكاتها، ويعتدى على أعراضها، ويستذل كرامتها. ولكنه يبعثر طلقاته كيفما اتفق، بعضها فى المكان الصحيح، وبعضها فى أبعد مكان عن المكان الصحيح!

إن الخطيئة الكبرى التى يقع فيها هذا الفريق - بصرف النظر عن إخلاصه - هى إعطاء العدو - الذى يقوم فعلا بمحاربة الإسلام بجميع الوسائل - فرصة للكذب على العالم كله، بأنه لا يحارب الإسلام إنما هو يحارب الإرهاب! ويصدقه العالم فى دعواه محتجا بما يقع أمامه من مقتل من لا يستحق القتل، ومقتل من لا يجوز قتله. وكفى بتلك الخطيئة سوءا أن تعطى العدو هذه الفرصة للكذب والخداع، وتغطى جريمته الكبرى، التى يقوم بها فى واقع الأمر، وهى محاربة الإسلام.

على أن هذه الخطيئة لا يقف السوء فيها عند هذا الحد.. بل هناك ما هو أسوأ.

إن الغثاء الذى تشتمل عليه الأمة فى وقتها الراهن، والذى أخبر عنه الرسول الكريم ﷺ قبل أربعة عشر قرنا، ليريحه كثيرا أن يصدق هذه الكذبة التى يَكْذبها العدو، ويجد لها سندا فيما يقوم به هذا الفريق من أخطاء.

لو انكشف الأمر على حقيقته: أن الصليبية الصهيونية مجتمعة تشن حربها على الإسلام بضراوة، مستخدمة جميع الوسائل، السياسية والاقتصادية والفكرية والإعلامية، فما واجب الأمة؟ واجبها الذى كلفها الله به منذ أخرجها إلى الوجود، أن تكافح العدوان، وتعد لذلك كل ما استطاعت من عدة، وتهبّ لنصرة دينها وعقيدتها. . والغثاء الذى تشتمل عليه الأمة لا يريد أن يتحرك، لأن الحركة تعرضه لما يراه - فى حالة غثائيته الراهنة - خسائر وتضحيات لا مسوِّغ لها!

وصدق الرسول الكريم ﷺ حين شخّص سبب المرض الذى أصاب الأمة وأدى إلى غثائيتها، فقال عليه الصلاة والسلام فى الحديث المشهور: «وليقذفن فى قلوبكم الوهن. قالوا ما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت!».

نعم. . لا يحب غثاء الأمة أن يتحرك! فكم يريحه، ويثلج صدره، من يقول له: لا توجد حرب على الإسلام! إنما الحرب موجهة ضد الإرهاب! وأى خطيئة يرتكبها هذا الفريق من الناس أسوأ من إيجاد الفرصة لهذا الخدر الخادع أن يتمكن من القلوب التى أوهنها الوهن، والتى هى فى أشد الحاجة لمن يوقظها من خدرها لتنبعث حية من جديد؟!

أكاد أقطع بأن الفريق القائم بهذه الأعمال لا يدرك مدى ما تؤدى إليه أعماله من سوء. ولكن هذا لا يشفع له. إن وعيه السياسى والحركى فى نقطة الصفر، ونعود إلى الآية الكريمة التى قدمت ذكر البصيرة على ذكر العقيدة: ﴿**قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (يوسف: ١٠٨).

إن هذا الدين منهج حياة كامل. . وكل قضايا الحياة الأساسية مشروحة فيه، والمتروك من أمور الحياة لم يذكر فى الكتاب والسنة، الذى ترك للاجتهاد الذى يقوم به المؤمنون الواعون إنما هو فى التفصيلات المتجددة وليس فى الأسس الثابتة. . وقد أشار إليها الرسول الكريم ﷺ فى قوله: «. . وترك أمورًا رحمة منه غير نسيان». فالله سبحانه وتعالى لا ينسى، ولا يغفل، جل جلاله، إنما من رحمته ترك هذه الأمور التفصيلية لاجتهاد المؤمنين، يتصرفون فيها بما يناسب أحوالهم، أما الأسس فلم يتركها - سبحانه - بلا دليل.

تقول الآية الكريمة فى سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

هل سب الأصنام خطأ في ذاته أو محرم أو مكروه؟! ولكن حين ترتب عليه أن تجرأ الكفار فسبوا ﴿اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، نهى اللّه المسلمين عن سب الأصنام.

وتروى كتب السيرة أن قوما من المؤمنين فى المدينة راحوا يستأذنون الرسول ﷺ فى قتل عبد اللّه بن أبى بن سلول، بعدما ذاع من أعماله التى يكيد بها للإسلام والمسلمين، فلم يأذن لهم الرسول ﷺ، وقال لهم: «لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه».

هل قتل المنافق البيّن النفاق خطأ فى ذاته أو محرم أو مكروه؟! واللّه يقول مخاطبا رسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ٧٣، التحريم: ٩)؟ ولكن لما كان يترتب على ذلك - فى ذلك الحين، والإسلام لم يثبت أقدامه بعد فى المدينة - أن يتحدث الناس أن الرسول ﷺ يقتل أصحابه، لم يأذن الرسول بقتل عبد اللّه بن أبى على الرغم من دوره فى حادث الإفك، وقوله مهددا المسلمين: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، زاعما لنفسه أنه هو الأعز وأن المسلمين هم الأذلون الذين سيخرجهم من المدينة بعزته!

ما الدلالة فى الحالتين؟

لم ينظر الشارع فى كلتا الحالتين لمشروعية العمل فى ذاته، إنما نظر إلى مآل العمل: هل هو فى صالح الإسلام، أم ليس فى صالحه؟ فحين لا يكون العمل فى صالح الإسلام (فى ظروف معينة) فإن هذا يلغى مشروعيته - فى تلك الظروف - وإن بقيت مشروعيته قائمة من حيث المبدأ، حين لا يترتب عليها ضرر بالإسلام. وهذا من القواعد الأساسية فى هذا الدين.

فحين نطبق هذه القاعدة على الأعمال العشوائية التى يقوم بها هذا الفريق من الناس، على ظن أنهم يقومون بعمل مشروع، فماذا يكون الحكم؟

هل من صالح الإسلام، والدعوة الإسلامية، والأمة الإسلامية فى ظرفها

الراهن، أن نعطى العدو الذى يحارب الإسلام بكل وسائل الحرب فرصة ليكذب على الدنيا كلها، ويدعى أمامها أنه لا يحارب الإسلام وإنما يحارب التطرف؟! ونعطى الفرصة فى الوقت نفسه للعالم كله ـ من يبغضنا منهم ومن لا يبغضنا ـ أن يصدق الأكذوبة؟!

وهل من صالح الإسلام، والدعوة الإسلامية، والأمة الإسلامية فى ظرفها الراهن، أن نعطى فرصة للغثائية المريضة أن تستمر فى خدرها، على وهم أن الذى يحارب هو الإرهاب وليس الإسلام؟!

* * *

أما الفريق الآخر الذى يقول: نحن ديمقراطيون تعدديون. . فخطيئته من نوع آخر.

إن العدو الذى يحارب الإسلام يريد شيئًا واضحا محددا ـ أو يجب أن يكون واضحا ـ هو منع المسلمين من تطبيق شريعتهم، والتخلى عما يسمونه «الإسلام السياسى» وقبول دولة ـ يسمونها مدنية ـ لا يحكمها الدين، وإعطاء شرعية «للآخر» ولو كان ملحدًا أو فاسقا تحت سقف «المواطنة».

فهل هذا يكون إسلاما أيها الأحباب؟!

أعداؤنا ـ بما فيهم من خبث وذكاء ـ لا يقولون لنا جهرة: اخرجوا من إسلامكم! فهم يعلمون جيدا أنهم لو قالوا هذا لانقلب الأمر عليهم فى لحظة، ولاستيقظ النائمون من غفوتهم، وهبوا يدافعون عن إسلامهم، كما حدث من هبة المسلمين على الصحيفة التى نشرت الصور البذيئة التى تسىء إلى أحب الخلق إليهم وأعزهم لديهم: رسول الله ﷺ.

وتلاميذهم وأعوانهم ممن يحملون أسماء إسلامية يعلمون هذه الحقيقة كذلك. ومن أجل هذا فإنهم ـ هؤلاء وأولئك ـ لا يقولون للمسلمين: اخرجوا من إسلامكم! إنما يقولون لهم قدموا تفسيرا جديدا للإسلام يتمشى مع تطورات العصر، ويتسع لمستجداته، ولا تتمسكوا بالتفسير الذى قدمه أسلافكم، فى ظروف تختلف تماما عن ظروفكم، وجددوا خطابكم الدينى لتخرجوه من تحجره ويبوسته، وتعيدوا إليه حيويته ومرونته، وتظلوا ـ مع ذلك ـ مسلمين!

قل إن شئت إنها حيلة خبيثة ذكية يمكن أن تنطلى على بعض الناس! ولكن لا ينبغى أن تنطلى على داعية!

شنشنة نعرفها من أخزم، كما يقول المثل العربى.

حين جاء الاستعمار الصليبى إلى العالم الإسلامى أول مرة كان أول أعماله بعد دخوله بعسكره، والقضاء على المقاومة الإسلامية، إلغاء الشريعة الإسلامية من الحكم، وإدخال القوانين الوضعية بدلا منها (مع الإبقاء على قوانين الأحوال الشخصية ولو إلى حين) وبثوا فى الوقت نفسه من يقول للناس: لا بأس عليكم من إلغاء الشريعة، فما دمتم تصلون وتصومون فأنتم مسلمون! ثم سلطوا على الأمة من مناهج التعليم ووسائل الإعلام ما يجعلهم يهملون الصلاة والصوم، وكل شعائر العبادة، وبثوا فى الوقت ذاته من يقول للناس: لا بأس عليكم ولو لم تصلوا ولا تصوموا، فما دمتم تقولون لا إله إلا اللّه فأنتم مسلمون!

وظلت الأمة ردحًا من الزمن - إلا من شاء ربك - لا تحكّم شريعتها، ولا تؤدى عبادتها، وتعتقد فى الوقت نفسه أنها مسلمة بقول لا إله إلا اللّه!

ولكن شاء اللّه - ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٢١) - أن تقوم الصحوة الإسلامية بقدر من اللّه تعالى، فيهب الناس فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى - والشباب خاصة - فيصلون ويصومون، ويطالبون بتحكيم الشريعة فى كل شئون الحياة!

وأسوأ من ذلك بالنسبة للأعداء، أن قامت الصحوة تواجه الاستعمار الجديد منطلقة من لا إله إلا اللّه! وكانت مفاجأة حادة ولا شك، ولكنهم لم يقفوا مكتوفى الأيدى إزاءها، فراحوا يخططون ويدبرون.

جربوا زرع المنطقة الإسلامية بالانقلابات العسكرية التى تقوم نيابة عنهم بمحاولة القضاء على الصحوة بالسجن والتعذيب والقتل، ثم وجدوا بعد ما يزيد على نصف قرن أن السجن والتعذيب والقتل لم يقض على الصحوة بل زادها اشتعالا!

لابد إذن من سياسة جديدة لعلها تكون فى هذه المرة هى القاضية!

نحارب العمل الإسلامى فى جميع مجالاته تحت راية محاربة الإرهاب، ومن

جهة أخرى نحارب المفاهيم التى تقوم عليها الصحوة: نهاجم «الإسلام السياسى» ونهاجم «الدولة الدينية»، ونهاجم «الآحادية الإقصائية» وننشر بدلا منها الديمقراطية التعددية، واحترام الآخر، والدولة المدنية، والمواطنة الحرة، والحوار.. ونبث فى الوقت ذاته من يقول للناس: لا بأس عليكم من هذا كله، فمازلتم مسلمين، بل أنتم فى إسلام جديد متطور، يتمشى مع مستجدات العصر، ويتمتع بالحيوية والمرونة، ويحول بينكم وبين الصدام مع غيركم من الناس!

حين يصنع أعداؤنا ذلك، فهذا أمر منطقى تمامًا بالنسبة لما يسمونه «مصالحهم» وبالنسبة لموقفهم من الإسلام. أما حين نتبناه نحن.. فكيف يكون الموقف؟ ومن الذى يستفيد من ذلك الموقف؟!

تعالوا نتدبر الأمر أيها الأحباب..

إن الديمقراطية بمفهومها الغربى تشتمل على إيجابيات كثيرة قيّمة، ولا شك فى أن الناس فى ظلها أحسن حالا بكثير مما كانوا عليه فى عصورهم الوسطى المظلمة، حيث كان الشعب يتحمل كل «الواجبات» وهو محروم من كل «الحقوق». ولكن فيها إلى جانب إيجابياتها الكثيرة سلبيات ضخمة ليس هنا مجال تفصيلها، منها أنها مسرحية جميلة تُخَيِّل لمن يطلقون عليه اسم «رجل الشارع» أنه هو الذى يحكم، بينما الذى يحكم فى الحقيقة هو رأس المال، وهو الذى يدير العملية السياسية كلها لصالحه. ومنها أخذ القرارات بالأغلبية العددية التى يتساوى فيها النابه ذو الخبرة، والإمعة الذى يلتزم بقرارات حزبه بحكم كونه نائبًا عن الحزب، فيصوت لكل قرار تصدره حكومته دون النظر إلى فائدته أو ضرره، ومنها توسيع دائرة «الحرية الشخصية» لتشمل حرية الملحد فى أن يلحد، وحرية الفاسق فيما يعن له من ألوان المجون، دون أن يكون من حق أحد أن يحجر عليه أو يسائله[1]!

ولكنا هنا فى بحثنا هذا لا نتحدث عما لها وما عليها فى حياة الغرب.. إنما نتحدث عنها فى ميزان الإسلام، الذى هو ميزاننا - أو هو الذى يجب أن يكون ميزاننا - فى كل الأمور مادمنا مسلمين.

---

(١) انظر إن شئت فصل «الديمقراطية» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

إذا وضعنا الديمقراطية فى ميزان الإسلام ـ كما ينبغى لنا أن نصنع ـ نجد فيها أمرين مختلفين، أحدهما يلتقى مع الإسلام التقاء كاملا، والآخر يتنافى مع الإسلام تنافيا كاملا.

أما الشق الذى يلتقى مع الإسلام التقاء كاملا فهو البيعة الحرة، ورقابة الأمة على أعمال الحاكم. وغنى عن البيان أننا نتكلم عن الإسلام كما أنزله الله، وكما طبق تطبيقا كاملا فى عهد الخلافة الراشدة، بصرف النظر عن انحراف الأمة عنه فى واقعها السياسى خلال التاريخ، فالإسلام ـ كما قلنا فى أكثر من موضع ـ حجة على الأمة، وليست الأمة حجة عليه، وهى تكون مستقيمة بقدر ما تلتزم بمقتضياته، وتكون منحرفة بقدر ما تبتعد عنه، ويظل دين الله كما أنزل لا يعتوره نقص ولا تحريف ولا تبديل: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر: ٩).

نتكلم عن الإسلام الذى قال رسوله ﷺ: «والذى نفس محمد بيده، لتأصرنهم على الحق أصرا، ولتقصرنهم عليه قصرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض».

الإسلام الذى وقف فيه عمر رضى الله عنه يقول للناس: أيها الناس اسمعوا وأطيعوا، فيقول له سلمان الفارسى رضى الله عنه: لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة. فيقول عمر رضى الله عنه: ولمه؟ فيقول سلمان: حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى ائتزرت به، وأنت رجل طوال لا يكفيك برد واحد كما نال بقية المسلمين. فينادى عمر رضى الله عنه ابنه عبد الله رضى الله عنه فيقول له: نشدتك الله، هذا البرد الذى ائتزرت به أهو بردك؟ فيقول عبد الله بن عمر رضى الله عنه مخاطبا الناس: إنه بردى أعطيته لأبى ليئتزر به، لأنه رجل طوال لا يكفيه برد واحد. فيقول سلمان رضى الله عنه: الآن مر! نسمع ونطع!

عن هذا الإسلام نتكلم، فنقول إن أحد شقى الديمقراطية يلتقى مع الإسلام التقاء كاملا. ولا نقول إن الإسلام فى هذه النقطة يلتقى مع الديمقراطية كما يقول كثير من المستضعفين، الذين تدفعهم الهزيمة النفسية بوعى أو بغير وعى إلى أن يجعلوا الديمقراطية هى الأصل، والإسلام هو الذى يعرض عليها، لتقبل منه ما تقبل، وترفض منه ما ترفض.. كما تشاء!!

أما الشق الذى يتنافى مع الإسلام تنافيا كاملا، فهو أولا رفضها القاطع لتحكيم شريعة اللّه، وهو ثانيا إعطاؤها شرعية الوجود للملحد والفاسق فى المجتمع الإسلامى، وشرعية اعتناق ما يشاء مخالفا لأمر اللّه، وشرعية الدعوة لما يعتنقه مخالفا لأمر اللّه.

تلك هى الديمقراطية أيها الأحباب! فماذا تقولون؟!

إن قلتم نأخذ الشق الذى يلتقى مع الإسلام، ونرفض الشق الذى يتنافى مع الإسلام، فلن ترضى عنكم أمريكا ولا أعوانها ولا أتباعها ممن يحملون أسماء إسلامية، وسيقولون لكم: إما أن تأخذوا الديمقراطية حزمة واحدة ـ بخيرها وشرها إن كان فيها شر كما قال طه حسين ذات مرة[1] ـ وإلا فأنتم رجعيون، ظلاميون، أحاديون، إقصائيون.. لا تصلحون! وصدق اللّه العظيم: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ (البقرة: ١٢٠).

هذه واحدة.. والثانية هى «الإسلام السياسى».. ما المقصود به؟ وضعا للنقاط على الحروف، بلا لفٍّ ولا دوران، المقصود به هو السعى لتحكيم الشريعة، وهو المحرّم الأكبر فى نظر أمريكا، وفى نظر أعوانها وأتباعها ممن يحملون أسماء إسلامية.. فما موقفنا من ذلك؟

هل يملك المسلم أن يتنازل عن هذه القضية وقد قال اللّه فى محكم التنزيل: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

هل يملك مسلم أن يتنازل عن هذه القضية ولو قيل له ألف مرة: أنت رجعى، وظلامى، وأحادى، وإقصائى.. وستسحقك عجلة التاريخ؟!

إنها مسألة عقيدة.. مسألة جنة ونار.. وليست مسألة بدائل بعضها يمكن أن يحل محل بعض!

﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ (المائدة: ٥٠).

---

(١) راجع كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» لطه حسين.

وأما ثالثة الأثافى فهى قضية «الآخر»، وحقه فى الوجود، وحقه فى اعتناق ما يريد، وحقه فى الدعوة لما يريد. . ولو كان ملحدا، ولو كان منحل الأخلاق، وبخاصة إن كان من «المبدعين!».

فأما إن كان فى دخيلة نفسه يعتنق الإلحاد والكفر، ولا يتبجح بإعلانه، ولا يدعو إليه، فهذا شأنه، وليس لأحد سلطان عليه، وحسابه على الله. أما إن كان يتبجح بالإعلان، ويتبجح بالدعوة، فما حكمه فى كتاب الله أيها الأحباب؟!

❊ ❊ ❊

لا يخرج موقف الإسلاميين الذين يقولون: نحن ديمقراطيون تعدديون عن أحد أمرين: إما أن يكونوا يقولون هذا مجاراة، ليفتح لهم باب للعمل والحركة بعد أن أوصدت أمامهم الأبواب حين كانوا ينادون بضرورة تحكيم الشريعة، وإعادة المجتمع إلى مقتضيات الإسلام، وفتحت لهم السجون والمعتقلات، وأُعْمِلَ فيهم التعذيب والقتل. . وإما أن يكونوا قد تحولوا بالفعل - فى دخيلة أنفسهم - إلىَ اعتناق ما يدعون إليه، على أساس أن الإسلام يمكن أن يتسع له، وأنهم بذلك يخدمون الدعوة ويعملون على نشرها.

فأما إن كانت الأولى، فهم واهمون إذا ظنوا أن عدوهم سيتيح لهم المجال للعمل، ويسمح لهم بالوصول إلى السلطة إذا تزيوا بزى الديمقراطية، وتبنوا مفاهيمها فى دعوتهم، وهم يضمرون فى أنفسهم أنهم إذا وصلوا إلى السلطة سينزعون الثوب المستعار، ويعودون إلى حقيقة دعوتهم الإسلامية!

إن «الدبلوماسية» سلاح القوى يستخدمه ليخدع به المستضعفين، وليس سلاح المستضعف يخدع به القوى، وحتى إذا واتاه الحظ مرة فأفلت من حصار القوى المتجبر، فسرعان ما يلتف هذا بقبضته ليستعيد ما أفلت منه فى غفلة منه. وكلاب الصيد - كما قلت مرة[1] - ذات حاسة شم قوية، لا تكتفى بشم الثوب، إنما تشم ما بداخله! فهم واهمون إن ظنوا أنهم سيمكّنون من تحكيم الإسلام إن لبسوا ثوب الديمقراطية. وتجربة الجزائر، وتجربة أربكان فى تركيا كفيلتان بإزالة الوهم عن الواهمين.

---

(١) فى كتاب «العلمانيون والإسلام».

بل هم واهمون إن ظنوا أن مجرد وصولهم إلى السلطة سيمكّنهم من تطبيق الإسلام، بغير تربية للأمة على احتمال تكاليف الإسلام!

إن للإسلام تكاليف فى النفس والمال، والمشاعر والسلوك، يقول رب العالمين: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ (العنكبوت: ٢)؟ ويقول جل شأنه: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٢)؟

فلنفترض جدلا أن العدو الصليبى الصهيونى لم يهاجم الدولة التى تطبق الشريعة بجيوشه وأسلحته، ولم يحرك أعوانه وأتباعه ممن يحملون أسماء إسلامية ليقوموا بتقويض الحكومة من الداخل، واكتفى بتجويع الشعب ليثنيه عن المضى فى التحاكم إلى شريعة الله، فهل يصبر الشعب - بغير تربية إيمانية - على الجوع من أجل إقامة حكم الله؟

بل لنفترض أبعد من ذلك . .

لا العدو الصليبى الصهيونى هاجم الحكومة الإسلامية بجيوشه وأسلحته، ولا حرك أعوانه وأتباعه لتقويض الحكومة من الداخل، ولا قام بتجويع الشعب . . فهل يصبر الشعب - بغير تربية إيمانية - على إزالة الفحش الذى تعود عليه فى وسائل الإعلام المسموعة والمرئية؟

هذا كله إذا افترضنا أن الذين يقولون: نحن ديمقراطيون تعدديون، يقولونها فقط ليمروا من بين أنياب العدو القاهر الذى يحاول افتراس الإسلام . .

أما إن كانت الثانية . . إن كانوا يؤمنون فى دخيلة أنفسهم بأن الإسلام يمكن أن «يتطور» فيسمح لهذه الانحرافات كلها بأن تلبس زى الإسلام، فالخلل فى التصور أكبر . . وأخطر!

إن الإسلام لم ينزل ليجارى انحرافات البشر، وإنما نزل ليقوّمها: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد: ٢٥).

ولا يُخْدَم الإسلام بالتربيت على انحرافات المنحرفين، ومجاراتهم فى بعض انحرافاتهم لكى يميلوا إلينا ويستمعوا لنصائحنا، على أمل أن يستقيموا فى النهاية على المنهج الصحيح: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ (القلم: ٨، ٩).

* * *

والخلاصة من هذا الحديث كله أن كثيرا من العاملين فى حقل الدعوة يفتقدون الوعى السياسى والوعى الحركى، سواء منهم من يحمل البندقية ويستخدمها استخداما عشوائيا، أو من يقول: نحن ديمقراطيون تعدديون! كلاهما لا يخدم الإسلام، ولو كان فى دخيلة نفسه مخلصا لا يرجو من وراء عمله إلا مرضاة اللّه!

ونقطة الخلل الرئيسية عند هؤلاء وهؤلاء تكمن فى أن الوعى السياسى والوعى الحركى عندهم ضعيف إلى درجة كبيرة، وذلك لأن هذا المجال من مجالات التربية ـ مجال الوعى السياسى والوعى الحركى ـ لم يكن موضع التفات ولا اهتمام فى برامج معظم الحركات الإسلامية، إما لأنها لم تقدره حق قدره، وإما لأنها هى ذاتها تفتقده، وفاقد الشىء لا يعطيه. بينما لا تستطيع حركة أن تنجح فى تحقيق أهدافها إذا كانت تفتقد الوعى بما حولها من ظروف وأحداث، وما عند أعدائها من مكايد وتدبيرات!

٢ ـ الثلاثى المعوق عن النهوض

انتشر الإسلام ـ بقدر من اللّه ـ فى منطقة من الأرض، من المحيط إلى المحيط ـ يقع معظمها فى المنطقة الحارة، أو المنطقة المعتدلة التى يشتد فيها الحر فى الصيف، وقليل منها ما يقع فى المنطقة المعتدلة الباردة.

وأهل هذه المناطق ـ إلا الأفذاذ منهم ـ يغلب على أكثرهم أن يكونوا فوضويين لا يحبون النظام، عفويين لا يلجئون إلى التخطيط، قصار النفس، يشتعلون بسرعة وينطفئون بسرعة!

وقد يكون هذا من أثر البيئة التى لا يشتد فيها الحر ولا البرد إلى الدرجة المهلكة، والتى يمكن اتقاء غوائل الحر والبرد والجوع فيها بتدبيرات يسيرة لا تحتاج إلى جهد كبير، ولا إلى تخزين طاقة فى الأعصاب لملاقاة مستقبل غير منظور، أو لتلافيه[1].

ومن هناك ـ من هذه البيئة ـ تسلم الإسلام الناس، فأخرج منهم ﴿ **خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾!

بالتربيـــة . .

كلما قرأت فى كتب السيرة كيف كان الرسول ﷺ ينظم صفوف الصلاة، ويمر بيده الكريمة، يسوى كتف هذا إلى كتف ذاك، ولا يبدأ الصلاة حتى ينتظم الصف، كلما قرأت هذا فى كتب السيرة، تجسم فى حسى الجهد التربوى الذى بذله رسول الله ﷺ، ليعلم الناس النظام، ضد أثر البيئة الكامن فى النفوس!

يقول الصحابة رضوان الله عليهم: كان رسول الله ﷺ يصفّنا للصلاة كما يصفّنا للقتال!

إنها التربيـــة!

والإسلام كله مواقيت: الصلاة مواقيت، والصيام مواقيت، والزكاة مواقيت، والحج مواقيت.

والمواقيت تعلم النظام والدقة، ولكنها فى حاجة إلى التربية حتى يتحول الالتزام بالنظام إلى عادة يتعودها الإنسان ويقوم بها بتلقائية وبغير جهد. والتربية فى حاجة إلى وجود القدوة الذى يعطى المثل ويشرح المطلوب بصورة عملية. وقد كان الرسول الكريم ﷺ هو القدوة فى الأمور كلها. يقول رب العالمين: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ (الأحزاب: ٢١). ويقول رسول الله ﷺ: صلوا كما رأيتمونى أصلى، ويقول: خذوا عنى مناسككم . .

---

(١) يحتاج هذا الموضوع إلى دراسة علمية شاملة لا أظن أحدا قام بها، ولا أدعيها لنفسى!

وتحول الناس بفضل الإسلام - وبفعل الإسلام - من قبائل متفرقة متناحرة إلى أمة: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، أمة ليست مجرد أمة، ولكنها خير أمة أخرجت للناس: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

واستتبع وجود «الأمة» ضرورة وجود «الدولة». وتحتاج الدولة إلى تنظيم وتخطيط: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (النساء: ٥٩).

وكل ما تقوم به الدولة من أمور، سواء كان ترتيب المعاش لكل فرد يعيش فى ظلها، أو ترتيب الحقوق والواجبات، أو أمور السلم والحرب.. كلها تحتاج إلى التنظيم والتخطيط، وكان القرآن الكريم يتنزل بالتعليم، والرسول الكريم ﷺ يقوم بالتربية على تعاليم السماء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء: ٥٨).

ويقول الرسول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. الأمير راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع فى بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها. وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

ويقول عمر رضى اللّه عنه: لو عثرت بغلة بصنعاء لكنت مسئولا عنها لِمَ لَمْ أسوّ لها الطريق!

إذا كان هذا أمر النظام والتخطيط، ودور الإسلام فى تعليم الأمة لهما ضد تأثير البيئة، فقد بقى من الثلاثى الذى أشرنا إليه أمر النَّفَس الطويل الذى يتابع الأمر بعزيمة أكيدة حتى يصل به إلى تمامه ولا تنطفئ حماسته له بعد اشتعالها.

وقد كان للإسلام فى ذلك دور عجيب.

إنه لا يمد بصر الإنسان إلى هدف قريب، ولا يدعه يتوانى لحظة واحدة فى متابعته، بل يرسم له هدفا لا يوجد هدف أبعد منه، هدفا يتجاوز الحياة الدنيا كلها، ويمتد إلى الآخرة!

وفى كل لحظة، وفى كل عمل، وفى كل هاجس يهجس فى النفس، يتوقف المؤمن ليسأل نفسه: أين موقعه وهو يعمل ما يعمل، أو يشعر بما يشعر: أفي الجنة أم فى النار؟ أفى مرضاة الله أم فى سخط الله؟: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (يونس: ٦١). ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المجادلة: ٧). ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٧). ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧ـ٨).

وبتلك الحساسية لرقابة الله لا يتوانى الإنسان لحظة عن المتابعة الجادة لكل عمل يعمله، وكل هاجس يهجس فى ضميره، محاولا أن يكون ذلك فى مرضاة الله.

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن يتحول البشر إلى ملائكة ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم: ٦).

كلا! إن الله يعلم ضعف الإنسان: ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨) ويعلم أنه ينسى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ (طه: ١١٥) ولكنه من فضله لا يطرد الإنسان من رحمته حين يخطىء، بل يعينه أن يقوم من عثرته، ويستعيد السير فى الطريق الصحيح: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ

يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٥، ١٣٦). ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ (النساء: ٣١).

وبهذا كله يتعود المؤمن أن يتابع هدفه، ولا يفتر فى متابعته. ولقد ظلت الأمة وقت أن كانت متمسكة بالإسلام تتابع أهدافها قرونا متوالية دون فتور، سواء فى مجال نشر الدعوة، أو فى مجال البحث العلمى، أو فى مجال الكشف عن مجاهيل الأرض، أو مجال الجهاد لتكون كلمة الله هى العليا.

* * *

ثم جاء الانحدار حين توالت انحرافات الأمة دون تصحيح.

ولسنا هنا بصدد شرح أسباب الانحدار، فلذلك مجال آخر[١]. ولكنا مشغولون هنا بتتبع آثار الانحراف بالنسبة للثلاثى الذى نتحدث عنه فى هذه الفقرة من البحث.

حين تخلخلت قبضة الأمة عن حبل الله المتين.. حين تخلخلت العقيدة فى القلوب، حدثت عجيبة مذهلة. عادت الأمة - إلا ما رحم ربك - إلى حالتها قبل أن تعرف الإسلام: فوضوية تكره النظام، عفوية تكره التخطيط، قصيرة النَّفَس، تشتعل بسرعة وتنطفئ بسرعة.

من يعيدها إلى استقامتها فى هذا الجانب؟ من إلا الإسلام؟

لقد ثبت بالتجربة أنه لا شىء أقوى أثرا من البيئة إلا العقيدة! العقيدة كما أنزلها الله فى كتابه، وعلّمها الرسول ﷺ لأمته، وليس مجرد الكلمة التى تنطق باللسان، ولا المشاعر المستسرة فى الوجدان، إنما كما وصفها السلف الصالح: نطق باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان.

هذه وحدها التى تتغلب على تأثير البيئة فى أعماق النفس، لأنها تعيد ترتيب الذرات فى داخل النفس، وتَنْظِمُها من جديد على النسق الصحيح.

---

(١) اقرأ إن شئت فصل «خط الانحراف» وفصل «آثار الانحراف» فى كتاب «واقعنا المعاصر».

من يعيد الأمة إلى استقامتها فى هذا الجانب إلا الإسلام؟

لقد حاول النهضويون، التنويريون، التقدميون، التحرريون، على مدى قرنين من الزمان أن يقوّموا انحراف الأمة فى هذا الجانب بالدعوة إلى تقليد الغرب، الذى بلغ حد العبقرية فى التنظيم، والعبقرية فى التخطيط، والعبقرية فى الجلد والمثابرة وطول النَّفَس. . فماذا جنوا فى محاولتهم التى استغرقت قرنين من الزمان، من أيام حملة نابليون على مصر إلى وقتنا الحاضر؟

لا شىء!

لأن المقلد لا يستطيع شيئًا فى عظائم الأمور، إنما يستطيع كثيرا فى سفاسفها! لأن عظائم الأمور تحتاج إلى جلد وعزيمة، والعبد المقلد لا جلد له ولا عزيمة، بينما السفاسف لا تحتاج إلى أكثر من فك الرباط، وما أيسر فك الرباط! فقلدت الأمة الغرب فى الانفلات الأخلاقى، وفى مظاهر السلوك، وعجزت - على يد النهضويين، التنويريين، التقدميين، التحررين - عن علاج أمر الثلاثى المعوق عن الانطلاق: الفوضى التى تكره النظام، والعفوية التى تكره التخطيط، وقصر النفس الذى يشتعل بسرعة وينطفئ بسرعة. . ولا تستطيع أمة أن تنهض نهضة حقيقية وفيها هذا الداء.

من يعيد الأمة إلى استقامتها فى هذا الجانب إلا الإسلام؟ ومن يملك الدعوة إليه إلا الحركات الإسلامية؟ فهل وضعت الحركات الإسلامية هذا الأمر فى حسابها، وعملت على علاجه؟

بداهة. . لا علاج له إلا التربية الإسلامية الصحيحة.

ومن الحق أن نقول إن الحركات الإسلامية بذلت جهدا مشكورا - فى داخل صفوفها - لتربية حاسة التنظيم، أما التخطيط، الذى يستلزم الوعى، فقد رأينا حاله فى الفقرة الأولى من هذا الفصل، وأما طول النفس فما يزال فى الميزان ينتظر الحكم عليه.

لكن هذا كله ما يزال داخل الصفوف، وأمر طبيعى أن يبدأ هناك. . ولكن يبقى

السؤال: هل وضعت الحركات الإسلامية هذا الأمر فى حسابها وهى تقوم بالدعوة؟

بعبارة أخرى: هل وضعت فى خطتها أنه لابد من علاج هذا الداء المتوغل فى جسم الأمة إذا أريد لها أن تنهض من كبوتها، من غثائيتها؟ وهل وضعت فى خطتها أنها هى - الجماعات الإسلامية لا غيرها - المسئولة عن هذا الأمر، لأنه لا علاج له إلا الإسلام؟! وأنها لن تستطيع أن تقوم به بالنسبة للأمة إلا أن تستكمل وجوده فى ذات نفسها، لأن فاقد الشىء لا يعطيه؟

* * *

تلك نماذج من مجالات التربية التى نادراً ما يلتفت إليها فى الوقت الحاضر، مع كونها ضرورية إلى أقصى حد من أجل بعث الأمة من جديد.

وسواء رأيناها ضرورات «حضارية» كما يحلو لبعضهم أن يقول عنها، أو رأيناها من مقتضيات لا إله إلا اللّه، كما نحب نحن أن نقول، فهى ضرورية فى جميع الحالات، ولا سبيل إلى اكتسابها إلا بالتربية الواعية الدءوب.

وفى هذه النماذج رد على الذين يتساءلون: إلى متى نربى؟ والذين يقولون: ربينا بما فيه الكفاية!

الإســلام قــادم

الإسلام قادم سواء رضى الأعداء أم كرهوا، وسواء استفاقت الأمة من غفوتها، واستقامت على أمر ربها، أم بقيت سادرة فى خَدَرِها!

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٣).

«ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، حتى لا يبقى بيت من حجر أو وبر إلا ويدخله الإسلام، بعز عزيز يعزه الله، أو ذل ذليل يذله الله» (رواه أحمد).

«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتل المسلمون اليهود، فيختبئ اليهودى وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا ورائى يهودى فتعال فاقتله» رواه مسلم.

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٨).

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة: ٥٤).

* * *

الإسلام قادم لأنه وعد الله، ووعد الله لا يخلف!

ولقد ظلت الأمة تنحدر وتضعف حتى ظن الأعداء أنها ماتت، أو فى سبيلها

إلى الموت، ورتبوا على ذلك آمالا واسعة: أنه سيتم لهم السيطرة على الأرض كلها، ويلغوا دين اللّه من الوجود. وكان قمة تخطيطهم وتدبيرهم إزالة الخلافة العثمانية، وإنشاء دولة علمانية على أنقاضها، على أمل أن إزالة الدولة سيزيل الإسلام من الأرض، وينفرط المسلمون كما ينفرط العقد حين يسحب الخيط الذى يمسكه، فيسهل على الأعداء اقتناص الحبات المتناثرة على الأرض، ويخضعونها لسلطانهم!

وشاء اللّه - الذى يدبر الأمر فى السموات والأرض - أن يكون هذا الحدث ذاته هو الذى يبعث الصحوة الإسلامية التى تمتد جذورها اليوم فى الأرض.

ولما فزع العدو، سعى إلى محاولة قتل الصحوة بيد بعض أبناء جلدتها، فى صورة انقلابات عسكرية يقوم بها «أبطال!» تضفى عليهم صفات البطولة وألقابها ليقوموا بتذبيح المسلمين وتقتيلهم وتعذيبهم وتشريدهم لعلهم ينتهون.

وبعد نصف قرن من التجربة ظهر للعدو أنها كانت فاشلة، وأنها أنتجت ما هو أشد خطرا عليه من الخطر الذى حاربه من قبل بيد أولئك «الأبطال!».

واليوم يحاول العدو القضاء على الصحوة بتزييف المفاهيم، وإيجاد قيم أخرى ومفاهيم «جديدة» تكون بديلة من الإسلام، مع إيهام الناس بأنهم ما زالوا مسلمين، أو إيهامهم بأن البدائل هى من صميم الإسلام، ولكن فى ثوب جديد..

ولكن هذا «الإسلام الأمريكانى» كما نسميه، تتعثر خطاه فى كل الأرض، ويخبو وهجه رويدا رويدا، فى سبيله إلى الزوال.

ثم يأتى الإسلام كما أنزله الله، لأنه وعد الله، ووعد الله لا يخلف.

* * *

هذه واحدة..

والثانية هى هذا الوعد الربانى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم بالمعركة مع اليهود.

وهذا الوعد له أهمية خاصة لأسباب عدة.

لقد ذوّب اليهود حاجز العداء الذى كان بينهم وبين النصارى، ثم سخروهم لمصالحهم.

ذوبوا حاجز العداء حين وصّلوا واحدا منهم أن يكون «بابا» للنصارى، وأصدر ذلك «البابا» وثيقة يبرئ فيها اليهود من دم المسيح[1]. وبصرف النظر عن اعتقادنا نحن المسلمين بأن المسيح عليه السلام لم يصلب، إنما صلب شبيه له بدلا منه كما ورد فى القرآن الكريم: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (سورة النساء: ١٥٧، ١٥٨).. بصرف النظر عن اعتقادنا نحن المستمد من كتاب الله، فقد كان النصارى يعتقدون اعتقادا جازما أن المسيح قد صلب، وأن اليهود هم الذين صلبوه أو تسببوا فى صلبه، فكانوا يكرهون اليهود كراهية عميقة، ويضطهدونهم أشد الاضطهاد، فلما أتوا بهذا البابا ذى الأصول اليهودية، وأصدر وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح، انهار جزء كبير من الحاجز الذى كان يقف بينهم وبين النصارى، واستطاع اليهود - بوسائل مختلفة لا مجال لشرحها هنا[2] - أن يسخروا النصارى لمصالحهم، ولم يبق فى الأرض عقبة أمام مخططاتهم للسيطرة العالمية الكاملة إلا الإسلام والمسلمون.

وهم جادون فى هذه الحرب بكل ما يملكون من وسائل، ومن بين وسائلهم تسخير أمريكا لحسابهم فى الحرب على الإسلام تحت عنوان «الحرب على الإرهاب».

وبالإضافة إلى ذلك، فالإفساد اليهودى الذى أخبر عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ ..وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (سورة المائدة: من آية ٦٤). هذا الإفساد يتفشى فى مجالات كثيرة، فلليهود أصبع فى جنون الكرة، وجنون الجنس، وجنون «الموضة» وكثير غيرها من ألوان الجنون التى تعج

---

(١) تحدثت الصحف الأوربية ذاتها عن أن ذلك البابا من أصل يهودى، وكذلك الكرادلة الذين أصدروا الوثيقة.

(٢) اقرأ إن شئت عن «دور اليهود فى إفساد أوربا» فى كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

بها الأرض اليوم. . فحين تقع المعركة التى أخبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم - وهى يقين، لأنها وحى من عند الله - فماذا يكون الموقف يومئذ؟ هل يظل لليهود سيطرتهم الحالية كما هى الآن بعد أن يسحقوا سحقا فى المعركة؟

إن النتائج المتوقعة من المعركة نتائج ضخمة، لا تنحصر فى استرداد ما اغتصبه اليهود من أرض المسلمين فى فلسطين - وهى قضية القضايا اليوم - بل تمتد نتائجها امتدادا واسعا فى الأرض، فتنحسر قدرة القيادة الضالة المضلة المسيطرة اليوم، وتبرز إلى جانبها قيادة مؤمنة رشيدة. . وينتشر الإسلام.

* * *

أما الثالثة فهى خاصة بالأمة الإسلامية.

إن الأمة الإسلامية اليوم فى أسوإ حالة وصلت إليها فى التاريخ. . والأمر أوضح من أن يحتاج إلى بيان. فإلى جانب التخلف فى جميع الميادين، تأتى السيطرة الخارجية التى أخبر عنها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرنا: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن». قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت» (رواه أحمد وأبو داود والترمذى»).

وقد قامت الصحوة بقدر من الله، تعمل جاهدة لإخراج الأمة من غثائيتها، وردها ردا جميلا إلى دينها الذى تقاعست عن تكاليفه فأصابها ما أصابها.

ونقول بادى الرأى إن حجم الصحوة مازال صغيرا بالنسبة لحجم العالم الإسلامى، الذى بلغ تعداد سكانه ما بين ألف ومائتى مليون وألف وخمسمائة مليون من البشر.

كما أن الصحوة ذاتها ينقصها أمور لتنضج وتصبح على مستوى الأحداث.

ولكـن. .

نفترض أسوأ الفروض . .

لا الأمة استيقظت على وقع الصفعات واللكمات التى يوجهها لها أعداؤها كل يوم، ولا الصحوة استكملت ما ينقصها لتصبح على مستوى الأحداث . .

هل يعجزون الله؟

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ (سورة فاطر : من آية ٤٤).

﴿ . . إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (سورة الطلاق : من آية ٣).

فى السنّة الربانية مفتاح الموقف . . **﴿ . .وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾** (سورة محمد : من آية ٣٨).

* * *

الإسلام قادم، كره الأعداء أم رضوا، واستيقظت الأمة أم ظلت سادرة فى خَدَرِها .

والذى نظنه ـ فى حدود رؤيتنا البشرية ـ أن يقظة الأمة، واستقامتها على الطريق هى الاحتمال الأقرب، ولا نتألى على الله، فالغيب غيبه، والأمر أمره .

إنما يحدونا إلى الاستبشار بمصير الأمة أمران، كلاهما من قدر الله : اتساع نطاق الصحوة فى الأرض الإسلامية يوما بعد يوم، وحماقات أمريكا وإسرائيل .

كل حماقة ترتكبها أمريكا أو ترتكبها إسرائيل ـ وهما بفضل الله لا تكفان عن الحماقة ـ تكشف الغشاوة عن عيون بعض الناس، وتردهم إلى الإسلام حين يرون رؤية اليقين أن الحرب القائمة الآن، والتى تتزعمها أمريكا وإسرائيل، هى حرب على الإسلام ذاته، وليست على الإرهاب كما يزعم الزاعمون، ويجندون لتعضيد مزاعمهم كل وسائل الإعلام .

* * *

بقيت كلمة إلى الأحباب العاملين فى حقل الدعوة . .

إن مهمتكم أيها الأحباب عظيمة وهائلة، ليس تجاه أنفسكم ولا تجاه أمتكم الإسلامية فحسب، وإنما تجاه البشرية كافة.

إن الغرب اليوم - على الرغم من كل إيجابياته، وكل نجاحاته - فى وضع مقلوب بالنسبة لقضايا الوجود الكبرى، وبالنسبة لقضايا الحياة الكبرى.

لقد أزال الغرب «المقدّسَ» من حياته، زعما منه أن «المقدس» معوق عن الإنطلاق، وأن الانطلاق لا يتم إلا بإزالة المقدّس من الحياة.

ويمكن «تفسير» هذا الموقف ولكن لا يمكن تبريره!

تفسيره أن الكنيسة الأوربية فى عصور أوربا المظلمة - المظلمة بالنسبة لتاريخ أوربا[1] - طغت وتجبرت، وأثقلت كاهل الناس، وكتمت أنفاسهم، وجمّدت حيويتهم باسم «المقدس»، سواء كان المقدس هو الإله، أو ما زعمت الكنيسة أنه دين الله، وهو فى الحقيقة مختلف فى كثير من أموره عن الدين الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام. فكان رد الفعل الأوربى منذ النهضة هو إزالة ذلك «المقدس» الذى استعبدت الكنيسة الناس باسمه، وأرهقت أرواحهم، بل أزهقت أرواح بعضهم فى محاكم التفتيش الشهيرة.

لكن الغرب، فى انقلابه على مقدس الكنيسة، قد أوجد فى حياته - التى خيِّل إليه أنها طليقة - مقدسات لا تستحق التقديس من جهة، وهى مفسدة للحياة من جهة أخرى، فاستبدل ضررا بضرر، وسوءا بسوء، وظلاما بظلام.

فمنذ فترة ليست ببعيدة قال فرويد: يجب أن نلغى كل العقائد، ويجب أن نجعل من الجنس عقيدة[2]!

We must abolish all dogmas and we must make sex a dogma!

---

(١) كانت فترة العصور الوسطى الأوربية التى توصف بالظلام، من أزهى عصور الحضارة الإسلامية، فينبغى الاحتراس من التعميم، وتحديد عبارة «العصور الوسطى المظلمة» بأنها عصور أوربا وحدها، وليست عصور البشرية.

(٢) شهد بهذا تلميذه يونج Jung فى كتابه «ذكرياتى عن فرويد Memorials of Frued»

ومنذ فترة ليست بعيدة قالت الرأسمالية: لابد أن ننشر «اقتصاد السوق الحر» - أى الاقتصاد الربوى - فى كل الأرض![١].

ومنذ فترة ليست بعيدة قال چوليان هكسلى، الكاتب الداروينى الملحد: لقد خضع الإنسان من قبل فى عصر العجز والجهل لله، بسبب عجزه وجهله، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة، فقد آن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل فى عصر العجز والجهل على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله[٢]!

وقد لا يكون الفرد العادى فى الغرب - الذى يسمونه «رجل الشارع» - واعيا لهذه القضية التى أشار إليها چوليان هكسلى فى عبارته المتبجحة، ولكنه يعيشها واقعًا دون وعى منه، فلئن سألته: من الذى ينبغى أن يشرع للناس لقال: الإنسان! ولئن سألته من الذى ينبغى أن يحدد المعايير، لقال: الإنسان! ولئن سألته: من الذى ينبغى أن يحدد ما يباح وما لا يباح فى حياة الناس، لقال: الإنسان! أى أنه - دون أن يكون بالضرورة واعيا لما يفعل - قد جعل «الإنسان» هو المقدس، بدلا من الله!

هذا وضع مقلوب بالنسبة لحقائق الوجود الكبرى. فحقيقة الوجود الكبرى أن الله هو الإله، وليس الإنسان، وأن الخالق هو الله وليس الإنسان، وأن الرزاق ذا القوة المتين هو الله وليس الإنسان، وأن المحيى المميت هو الله وليس الإنسان. وأن الله - بما أنه سبحانه وتعالى هو الخالق المحيى المميت، وبما أنه سبحانه هو الحكيم الخبير - هو صاحب الأمر: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (الأعراف: ٥٤)، ومن ثم فهو الذى ينبغى أن يشرع للناس، وهو الذى ينبغى أن يحدد المعايير، وهو الذى ينبغى أن يحدد للناس ما يباح لهم وما لا يباح!

والغرب - من جهة أخرى - يرى الحياة الدنيا هى الحياة التى ينبغى للإنسان أن يكرس لها كل جهده، فيسعى - بكل جهده - لعمارة الأرض، ويسعى - بكل جهده - لتحصيل المال، ويسعى - بكل جهده - للاستمتاع بما فى الحياة من متاع.

وهذا وضع مقلوب بالنسبة لحقائق الحياة الكبرى. فحقيقة الحياة الكبرى - كما

---

(١) انظر إلى «العولمة» و«منظمة التجارة العالمية».

(٢) انظر قوله هذا فى كتاب «الإنسان فى العالم الحديث Man in the Modern World».

أخبرنا رب العالمين - أن الحياة الدنيا مرحلة معينة من حياة الإنسان هى أقصر مراحلها، وأكثرها كدا ونصبا، وأقلها متاعا، وأن الحياة الأخرى هى الأطول لأنها خالدة، وهى الخالية - بالنسبة للمؤمن - من الكد والنصب، وهى المتاع الحقيقى، الشفيف النظيف، الرفيع الذى يليق بالإنسان فى أعلى مراتبه: ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ (العنكبوت: ٦٤). ﴿ **لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ** ﴾ (فاطر: ٣٥). ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ (التوبة: ٧٢). ﴿ **لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ** ﴾ (ق: ٣٥).

وهذا الوضع المقلوب كذلك يمكن تفسيره فى حياة الغرب، ولكن لا يمكن تبريره.

تفسيره أن الكنيسة حولت الدين المنزل من عند الله إلى دين أخروى يهمل الحياة الدنيا، ورهبانية تكبت نوازع الحياة، فكان الانقلاب الذى حدث منذ النهضة، هو جعل الدنيا هى أكبر هم الإنسان، ومتاع الحياة الدنيا أكبر الغاية، بصرف النظر عما يترتب على ذلك فى كيان الإنسان ذاته وفى مآلات حياته.

والبديل هو الإسلام!

الإسلام هو الذى يقدس الله سبحانه وتعالى لأنه هو الذى يستحق التقديس، ويعبده لأنه هو الذى يستحق العبادة وحده، ولكن الإنسان - فى ظل عبوديته الحقة لله الحق - مكرم، لأن الله كرمه: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ (الإسراء: ٧٠) وإيجابى وفاعل لأن الله منحه إيجابية وفاعلية: ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ (النحل: ٧٨) ولأن الكون كله مسخر له: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ** ﴾ (الجاثية: ١٣) فهو فى وضعه الطبيعى، وفى أكرم وضع وأرفعه، حين يعبد الله.

والإسلام هو الذى لا يكبت نوازع الحياة فى الإنسان، ولا يحجر على نشاطه، بل يأمره أن يمشى فى مناكب الأرض ويأكل من رزق الله: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ**

﴿الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ (الملك: ١٥)، وهو الذى وجهه لعمارة الأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، ولكنه لم يجعل الحياة الدنيا أكبر هم الإنسان ومبلغ علمه، بل وجهه إلى أن يبذل كل نشاطه فيها ملتزما بأوامر الله، لكى يفوز بما هو أغلى وأثمن وأرفع وأشف فى الحياة الآخرة.

* * *

هذا الإسلام - فى صورته المنزلة من عند الله - هو مهمتكم أيها الأحباب. هو مهمتكم لأنفسكم، وهو مهمتكم لأمتكم، وهو مهمتكم للبشرية كافة.

مهمتكم لأنفسكم، وعيًا وفقهًا والتزاما بمقتضياته.

ومهمتكم لأمتكم دعوةً وتربية على مقتضياته.

ومهمتكم للبشرية دعوة وبيانا وتعريفا بحقائقه.

ولكنكم لن تستطيعوا أن تقوموا بمهمتكم لأمتكم حتى تكونوا قد استكملتم وعيكم لهذا الدين، وفقهكم لشتى جوانبه، والتزامكم بمقتضياته.

ولن تستطيعوا أن تقوموا بمهمتكم للبشرية حتى تكونوا قد أنشأتم من أمتكم نموذجا تدعون البشرية إلى مشاهدته، فالإعجاب به، فالاقتداء به، فالدخول فيه.

الخطوة الأولى تبدأ من عندكم.. فى ذات أنفسكم.

وحين تتجهون إلى دعوة أمتكم فادعوها باسم الإسلام الذى أنزله الله، لا باسم الديمقراطية التعددية، ولا باسم الاشتراكية، ولا باسم المجتمع المدنى والدولة المدنية! فالذى أنزله الله إلينا هو الإسلام وليس الديمقراطية، والذى أمرنا الله باتباعه هو الإسلام وليس الديمقراطية، والذى يحاسبنا الله عليه يوم القيامة هو الإسلام وليس الديمقراطية!

وإن فريقا ممن يحملون أسماء إسلامية ليجعلون كأنما الديمقراطية هى الأصل الذى يعرض عليه الإسلام ليقبل منه ما يقبل، ويرفض منه ما يرفض! يضاهئون قوما من أمة سابقة، يقول عنهم سبحانه وتعالى فى كتابه المنزل: ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ

آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ (المائدة: ٤١).

أما المؤمنون فالأصل عندهم هو الإسلام الذى أنزله الله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (آل عمران: ١٩). ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٨) فهم يجعلونه هو المقياس الذى يقيسون إليه أفكار البشر ومعتقداتهم وسلوكياتهم، فما وافق منها الإسلام قبلوه، وما لم يوافق الإسلام تركوه.

ولا تنزعجوا إن رأيتم أناسا قد أحجموا عن اتباع دعوتكم إن سميتموها باسمها الذى أنزله الله، ولم تلبسوها من أثواب البشر. فليس الهم الأول للدعوة فى مرحلتها الراهنة الاستكثار من الجماهير أيا كانت نوعيتهم، وأيا كان الباب الذى يدخلون منه للدعوة. إنما همها الأول - فى مرحلتها الراهنة - أن يكون الذين استجابوا للدعوة قد دخلوا من باب لا إله إلا الله، لا من أبواب فرعية ضيقة.. أبواب تحقيق المصالح، أو الولوج إلى السلطة، أو ما شابه ذلك من الأبواب.

وليكن لكم فى المنهج النبوى الأسوة والقدوة.

لقد كان فى وسع رسول الله ﷺ أن يجعلها دعوة قومية، لإجلاء الفرس والروم عن أطراف الجزيرة العربية، حتى إذا اجتمع إليه الأعوان المتحمسون، قال لهم: قولوا لا إله إلا الله!

وكان فى وسعه ﷺ أن يجعلها دعوة للعدالة الاجتماعية، لإزالة طغيان الأغنياء، واستغلالهم للكادحين الفقراء، حتى إذا اجتمع حوله الأعوان الثائرون على ظلم الظالمين، قال لهم: قولوا لا إله إلا الله!

وكان فى وسعه ﷺ أن يعلنها دعوة أخلاقية ضد التبذل الأخلاقى الذى كان فاشيا فى الجاهلية من الزنا والخمر والتهتك والتبرج، حتى إذا اجتمع حوله المتطهرون من الناس قال لهم: قولوا لا إله إلا الله!

لكن الرسول الكريم ﷺ لم يصنع شيئًا من ذلك. إنما كان التوجيه الربانى له أن

يبدأ بـ «لا إله إلا اللّه» ويصر عليها ولا يحيد عنها. حتى إذا دخل الناس فى «لا إله إلا اللّه»، واستقامت عقائدهم، تم - بتوجيه اللّه - تحقيق القضايا كلها التى كان يمكن أن تجمع «الجماهير» من قبل: تم طرد الروم والفرس، وتم تحقيق العدل الاجتماعى، وتم تطهير الأخلاق، وغيرها من القضايا المصيرية البعيدة الأثر فى حياة الأمة، وتمت كلها على أعلى مستوى، وعلى أقوى مستوى، لأنها ارتبطت فى قلوب أصحابها بـ «لا إله إلا اللّه»!

وقد يقول قائل - وكثير من الناس يقولون - لقد كان هذا فى النشأة الأولى لأن الناس يومئذ فى جاهلية، يرفضون أن يؤمنوا باللّه، ويرفضون أن يقولوا لا إله إلا اللّه، أما اليوم فالناس كلهم بحمد اللّه - إلا من شذ منهم - يؤمنون باللّه، ويقولون لا إله إلا اللّه صباح مساء، فلسنا فى حاجة إلى أن نتأسى فى هذه النقطة بالمنهج النبوى!

والذين يقولون ذلك - وهم كثير - قوم «طيبون» يخدعهم سماع لا إله إلا اللّه على ألسنة الناس صباح مساء، ولا ينظرون إلى حالة الغثاء التى دخلت فيها الأمة - وهى تنطق بلسانها لا إله إلا اللّه - لأنها لا تعمل بمقتضياتها، بينما العنصر الفاعل فى واقع الأرض ليس نطق لا إله إلا اللّه، إنما هو العمل بمقتضياتها فى واقع الأرض.

إن هذه قضية منفصلة تماما عن قضية الحكم على الناس! فنحن لا نتعرض إطلاقا للحكم على الناس، إنما نقول - بيقين - إنه ما لم يعمل المسلمون بمقتضيات لا إله إلا اللّه فى عالم الواقع فلن يخرجوا من حالة الغثاء التى دخلوا إليها بإهمالهم لمقتضيات لا إله إلا اللّه، ولن يخرجوا منها حتى يعودوا إلى العمل بتلك المقتضيات!

وقد يقول قائل: وما لنا لا نفرح بدخول الجماهير فى الدعوة من أى باب دخلوا، فإن دخولهم - من أى باب دخلوا - هو مكسب للدعوة فى نهاية المطاف؟

ونقول: نعم، نفرح بهم، فدخولهم فى الدعوة من أى باب دخلوا خير لهم من الضياع الذى يعيش فيه كثير من الناس، حين لا يكون لهم هَمّ إلا لقمة الخبز فى أحسن الأحوال، أو المتاع الدنس فى كثير من الأحوال.

نعم.. ولكن..

لقد أثبتت التجربة المتكررة أن الذين يدخلون من الأبواب الفرعية الضيقة، ولا يدخلون من الباب الكبير - باب لا إله إلا اللّه - لا يصمدون لتكاليف الصراع الذى لا بد من أن يخوضه الإسلام مع أعدائه حتى يتمكن فى الأرض، ويتمكن من تحقيق منهجه فى عالم الواقع، لا لأن الإسلام هو الذى يجنح للصراع - كما يزعم أعداؤه - ولكن لأن الأعداء يرفضون أن يعطوه حقه الطبيعى فى الوجود حتى يدخل معهم فى صراع مرير ينتزع فيه هذا الحق منهم انتزاعا. فالذين يدخلون من الأبواب الفرعية، سواء كان الباب الذى دخلوا منه هو إرواء جوعة روحية، أو تحقيق مستوى من الحياة أعلى، أو الوصول إلى مكانة من الجاه أو مكان من السلطة.. هؤلاء لا يحتملون تكاليف الصراع، وسرعان ما ينصرفون إذا رأوا بادرة خوف أو تهديدا بحرمان.

لقد كان حول الإمام الشهيد حسن البنا رحمه اللّه نصف مليون من البشر، كانوا يبكون تأثرا من الاستماع إليه فى درس الثلاثاء، فلما انطلقت الرصاصة الأولى فى صدر الإمام الشهيد، فمن بقى من نصف المليون الذين كانوا يتأثرون من سماعه إلى حد البكاء؟!

لم يبق إلا الذين رباهم!

أما الأعداء فلا تتوقعوا منهم أن يرضوا عنكم أو يفسحوا لكم الطريق إذا دعوتم إلى الإسلام باسمه الذى سماه اللّه، ولم تدعوا باسم الديمقراطية التعددية، أو باسم المجتمع المدنى، أو الحكومة المدنية، أو ما ينثر فى الساحة من الأسماء.

نعم.. ولكن..

إنهم لن يرضوا عنكم أبدا إلا إذا تخليتم عن الإسلام كما أنزله اللّه، وأفرغتموه من محتواه الحقيقى، وألبستموه ما يشاءون هم من الأزياء.

ولسنا نحن الذين نقول ذلك من عند أنفسنا، إنما يقول ذلك أصدق القائلين سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** ﴾ (البقرة: ١٢٠).

ولكن الأعداء كانوا دائمًا خلال الأربعة عشر قرنا التى مضت منذ نزل هذا الدين

فى صورته المتكاملة فى الرسالة التى أنزلت على الرسول الخاتم ﷺ، والتى قال الله عنها: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣).. كان الأعداء بين حالتين، كلتاهما مذكورة فى كتاب الله، وكلتاهما لا تغير ما فى قلوب الأعداء من الكره والحقد، ولكن تغير المسلك العملى تجاه الإسلام والمسلمين، وكلتاهما ترجع إلى حال الأمة لا إلى حال الأعداء!

فأما إن كانت الأمة صادقة الإيمان، عاملة بمقتضيات دينها فى عالم الواقع، واعية لرسالتها، متمكنة منها، فيقول رب العالمين: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ ﴾ (المائدة: ٣).

لم يقل رب العالمين: ما دمتم على هذه الحال فسوف يرضى عنكم أعداؤكم، فهم لن يرضوا أبدا. ولكن قال تعالى: لا تخشوهم! لا تخشوهم لأنهم حين ييأسون من تحويلكم عن دينكم سيضطرون إلى التعامل معكم على أنكم «أمر واقع» لا حيلة لهم فى القضاء عليه، فيحترمونكم، ويخشون بأسكم، ويطلبون ودكم لترضوا عنهم!

جاء فى كتاب «الغارة على العالم الإسلامى»[1]، الصادر فى أوائل القرن الماضى، عن الدولة العثمانية قبل انهيارها، يوم كانوا يسمونها «الرجل المريض» قول أحد المنصّرين[2]: «إن أوربا كانت تخشى الرجل المريض - وهو مريض - لأنه يستطيع بإشارة من أصبعه أن يحرك ثلثمائة مليون من البشر.

أما الحالة الثانية المذكورة فى كتاب الله فهى عندما تكون الأمة مخلخلة العقيدة، غير عاملة بمقتضيات دينها، غير واعية لرسالتها، فيقول رب العالمين عن الأعداء: ﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (البقرة: ٢١٧).

وإلى هذا أشار الرسول ﷺ، حين وصف - قبل أربعة عشر قرنا - ما آلت إليه الأمة فى عهدها الأخير من حالة الغثاء التى أصابتها، قال عليه الصلاة والسلام:

---

(١) تأليف أ. شاتلييه، وترجمة محب الدين الخطيب، طبع القاهرة، سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) ويشتمل على مقررات بعض المؤتمرات التنصيرية التى كانت تنعقد فى أوربا للبحث فى طريقة القضاء على الإسلام.

(٢) تسمية المنصرين باسمهم الحقيقى أولى من تسميتهم المبشرين.

«ولينزعن اللّه المهابة من صدور أعدائكم» أى لا يعودون يخشونكم، بل تخشونهم أنتم.

بين هاتين الحالتين كان موقف الأعداء خلال الأربعة عشر قرنا، فلا تطمعوا أيها الأحباب فى أن تسعوا إلى استرضائهم بالتزيى بأزيائهم، ولكن اسعوا إلى التمسك بدينكم كما أنزله اللّه: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (الزخرف: ٤٣، ٤٤).

وحين تعود الأمة إلى حقيقة دينها كما أنزله اللّه، وتستمسك به على بصيرة، كما نرجو ونتوقع من وعد اللّه الذى لا يخلف، وييأس الأعداء من زحزحة الأمة عن دينها، فسيعود الأعداء إلى الوضع الذى قال اللّه فيه: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ (المائدة: ٣).

ولهذا فلتعملوا أيها الأحباب، ولا تبددوا طاقاتكم فى محاولة التزيى بأزياء تزين لكم لتفرغوا الإسلام من محتواه، وتحولوه - كما يريد الأعداء - إلى «علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا شأن لها بواقع الحياة»، فليس من أجل هذا أنزل اللّه دينه وفرضه على العباد، إنما أنزله ليحكم الحياة، فتستقيم أمور الناس: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد: ٢٥).

فإن جادلكم المجادلون وقالوا لكم إن العالم الآن صار كالقرية الواحدة، وإنكم إذا تمسكتم بتطبيق الشريعة فستصبحون نشازا فى القرية، فقولوا لهم إن تحكيم الشريعة فرض ربانى لا يملك مسلم أن يتنازل عنه من أجل أن يرضى عنه غيره من الناس: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥). ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٣٦). ولا يحق لنا شرعا ولا عقلا أن نستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير[1]، واللّه يقول: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: ٥٠).

---

(١) الباء تدخل على المتروك: والمعنى أنه لا يجوز لكم أن تأخذوا الذى هو أدنى وتتركوا الذى هو خير.

وإن قالوا لكم أنتم تسيّسون الدين فقولوا لهم : إن فى هذا الدين أحكاما تتعلق بعلاقة الحاكم بالمحكوم، وأحكاما تتعلق بعلاقات الأسرة، وأحكاما تتعلق بالبيع والشراء، وأحكاما تتعلق بعلاقات الأفراد بعضهم ببعض فى المجتمع المسلم، وأحكاما تتعلق بعلاقات المجتمع المسلم بغير المسلمين فى حالة الحرب والسلم، وأحكاما تتعلق بالجنايات، وأحكاما تتعلق بالمعاملات المدنية . . فإذا كان هذا كله «سياسة» فإن الدين ينزل مسيّسًا من عند الله، ولسنا نحن الذين نسيّسه من تلقاء أنفسنا، وما يجوز لنا أن نُحْدث فى الدين ما ليس فيه، لأن الرسول الكريم ﷺ قال : «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد» (رواه الشيخان) .

وإن قالوا لكم إنكم تتسترون بالدين لتصلوا إلى السلطة فقولوا لهم : إننا لسنا نطلب السلطة لأنفسنا، إنما نحن نطالب بتحكيم الشريعة لأن هذا فرض على كل مسلم، ولو أن الحكام الذين يَحكمون فى الأرض الإسلامية حكَّموا الشريعة كما أمر الله، فنحن خدّامهم وأعوانهم، لا نريد لأنفسنا شيئا، ولكننا حين نطالب بتحكيم الشريعة يقولون لنا أنتم تسعون لقلب نظام الحكم! كأنما كان الحكم معتدلا فسعينا إلى قلبه! إنما يكون الحكم مقلوبا حين لا يحكّم شريعة الله، ولا يكون معتدلا إلا حين يحكّم شريعة الله، وذلك قول الله فى كتابه المنزل، وليس قولا نبتدعه من عند أنفسنا، والتزمت به الأمة طوال قرون عديدة من تاريخها، ولم تخرج عنه إلا بعد أن غزاها الأعداء، وفرضوا عليها وضعا غير الذى فرضه الله .

❊ ❊ ❊

أيها الأحباب . . هذا طريقكم لتخرجوا الأمة من وهدتها، وتعيدوها إلى مكانتها التى أخرجها الله من أجلها : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ (البقرة : ١٤٣) .

والأمة فى حاجة إلى إصلاحات كثيرة فى كل اتجاه، لأنها متخلفة فى كل اتجاه . ولكن الخلل الأكبر فى حياتها اليوم هو التخلف العقدى، سواء كان التخلف جهلا بمقتضيات لا إله إلا الله كما أنزلها الله، أو كان تقاعسا عن العمل بمقتضياتها . وكل إصلاح لا يضع هذه النقطة فى حسابه فهو إصلاح مبتور لا يغير شيئا حقيقيا فى واقع الأمة . وتجربة قرنين كاملين من محاولات الإصلاح التى أهملت إصلاح

الخلل العقدى، بل عملت على إقصاء الدين تدريجيا عن الحياة، تجربة لا تحتاج إلى بيان، فنتائجها واضحة للعيان: نكسات إثر نكسات، وانكسار إثر انكسار، وتبعية مريرة للأعداء!

ولا نقول إن إصلاح الخلل العقدى سيصلح الأحوال كلها من ذات نفسه بعصا سحرية، فهذا لا يقول به عاقل! ولكنا نقول واثقين إن إصلاح الخلل العقدى هو الذى يجعل جميع ألوان الإصلاح بعد ذلك تؤتى ثمارها، وتؤدى إلى الفلاح.

والتربية على مقتضيات لا إله إلا الله هى الطريق.

ولقد يكون الطريق طويلا وشاقا ومليئًا بالأشواك، لا لأنه بطبيعته ملىء بالأشواك، ولكن لأن الأمة لم تتعهده كما أمرها ربها، فنبتت الحشائش الضارة على جانبيه وفى وسطه، ثم جاء الأعداء فزرعوا الأشواك فيه ليجعلوا السير فيه شاقا، وليبئسوا الأمة من العودة إليه، فى حين زينوا لهم من الطرق ما يحيلهم فى النهاية أسرى فى قبضة العدو المتجبر.

ولكن الله يقول: ﴿ **إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

ويقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

وثقوا بأن المستقبل للإسلام، لأن هذا وعد الله: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** ﴾ (الصف: ٩).

وثقوا بأن الدعوة لا تخدم إلا بما أوصى به الله: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رقم الإيداع ٢٢١٩٥ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى 4 - 1900- 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)



- دراسات فى النفس الإنسانية
- التطور والثبات فى حياة البشرية
- منهج التربية الإسلامية
- منهج الفن الإسلامى
- جاهلية القرن العشرين
- الإنسان بين المادية والإسلام
- دراسات قرآنية
- هل نحن مسلمون؟
- شبهات حول الإسلام
- فى النفس والمجتمع
- حول التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية
- قبسات من الرسول
- معركة التقاليد
- مذاهب فكرية معاصرة
- مغالطات
- دروس تربوية من القرآن الكريم
- مفاهيم ينبغى أن تصحح
- كيف نكتب التاريخ الإسلامى
- لا إله إلا الله عقيدة وشريعة
- دروس من محنة البوسنة والهرسك
- العلمانيون والإسلام
- هلم نخرج من ظلمات التيه
- واقعنا المعاصر
- قضية التنوير فى العالم الإسلامى
- كيف ندعو الناس؟
- المسلمون والعولمة
- ركائز الإيمان
- لا يأتون بمثله
- من قضايا الفكر الإسلامى المعاصر
- حول التفسير الإسلامى للتاريخ
- مكانة التربية فى العمل الإسلامى

6 221102 018746

دار الشروق
www.shorouk.com